A.U.B. LIBRARY

AMERICAN
UNIVERSITY OF
BEIRUT

A.U.B. LIBRARY

الاشتراكية
والشيوعية
في الإسلام

للمؤلف

بعض الكتب المطبوعة

هارون الرشيد
تيمورلنك
فيصل ملك العراق
* الامير عبد الكريم
* جهاد فلسطين العربية
العراق الجديد
* تركيا الجديدة
* سيد الجزيرة العربية
* اليقظة العربية
البحث عن الله
* دولة الادب والبيان
* رجال الجمهورية

محمد النبي العربي
محمد في نظر المستشرقين
ابو بكر الخليفة الاول
عمر بن الخطاب
عثمان بن عفان
* علي بن ابي طالب
* فاطمة بنت محمد
الحسين بن علي
معاوية بن ابي سفيان
يزيد بن معاوية
الحجاج بن يوسف
* خالد بن الوليد

الحرب العظمى (مجلدان)
* عشرون سنة بعد الحرب
* العرب « مجموعة تاريخية »
* ارسين لوبين (مجلدان)
* مجموعة البوليس (مجلدان)
* تاريخ سوريا ولبنان (مجلدان)
* ماذا يجب ان تعرف عن محمد والاسلام
مواقف مؤثرة في تاريخ محمد
المسرحيات المجموعة الاولى
المسرحيات المجموعة الثانية

---

* هذه الاشارة تدل على ان الكتاب نفذت نسخه

335
A164A
C.2

عمر أبو النصر الياقي

الاشتراكية والشيوعية في الإسلام

69402

لجنة النشر العربية
دار الاحد - بيروت

الطبعة الاولى
١٣٦٤ — ١٩٤٥

اهداء الكتاب

الى

طارق ابو النصر اليافي

علمت انك سألت عني لسنتين خلتا ، فلم توفق الى الاجتماع بي ، ولم اوفق الى الاجتماع بك ، وعلمت انك رجوت من هذا الاجتماع ما يصدر عن العربي الكريم النبيل مثلك . . . فاذا لم يوفقك الله الى ما اردت ورجوت ، فان انسى انك فكرت في الخير وهممت به ، يكفي هذا عند مثلي ، ليحفظ عهدك ، ويجمل في قلبه اعذب صورة لك . .

المؤلف

بسم الله الرحمن الرحيم

في سبيل الله ومحمد

منذ الف وثلاثمائة وخمسين سنة غادرت جماعة من العرب منازلها في الحجاز والصحراء، الى مشارف الشام وسواد العراق، لا يبالون ان تقف الجبال سداً في طريقهم، ولا يخشون ان يعترض البحر سبيلهم، ولا يأبهون ان تزخر السبل بالسيوف والرماح والخيل، ولا يضجرهم ان تطول الشقة، وينقطع الامل، فقد كان همّ هؤلاء بعد ان تولوا عن الصحراء العريانة القاحلة، ان يقيموا دنيا جديدة، على انقاض الدنيا القديمة، وكان اقصى

امانيهم وآمالهم ان ينشئوا في هـذه الدنيا الجديدة العـدل والحرية والحضـارة ، مضحين بانفسهم وارواحهم في سبيل الله ومحمد ...

كان هذا الامل نشيد العرب الاولين ، رددوه في مشارف الشام وسواد العراق ، وعلى ضفـاف الاردن والنيل ، وتغنوا بـه في صحراء افريقيـة ، ولهجوا بـه بين الظلال الوارفـة في الاندلس ... فمـا ملوا ترديده ، ولا اهملوا ترجيعه ، لا في منازل الاكاسرة ، ولا في مواطن القياصرة ، حتى وصلوا به الى مـا وراء النهر وحدود الصين ، وحتى حملوه الى اسوار القسطنطينية ومرافىء البحر المتوسط ...

رددت هذا النشيد في غير كتاب من كتبي ، فما مللته ولا جفوته ، وفي مرجوي ان اردده مدى هـذه الباقيات من اعوامي ، وان يردده سواي من شباب العرب ، وقد اخذوا العهد على انفسهم ليحسنن ما شاء الاحسان ، وليبنن ما شاءت عبقرية الفن في البنـاء ، حتى نعود سيرتنـا الاولى من المساهمـة في تعمير الارض ، وتعزيز الثقافـة ، وانشاء الحضارة على نحو جديد وزي طريف ...

هذا الكتاب

والكتاب الذي اقدمه للقراء جديد في موضوعه، جديد في بحوثه وتنوع اغراضه، رميت من تأليفه الى تصوير الحياة العربية في القرنين الرابع والخامس من الهجرة، يوم تبدلت الارض، وتفككت الاخلاق، وانهارت الحضارة التي اقامها العرب الاولون على امصار سحيقة ما تغرب عنها الشمس ولا يغيب عنها الضياء، وكل املي ان اكون قد وفقت في تصوير هذه الاعوام التي تقطعت بين نشوء الحضارة، وفجر الانهيار، لعل شباب العرب يجدون في هذه الفصول من العظة والذكرى، ما يحفزهم على الانشاء والاعمار والاحسان والبناء، لا على النحو الذي اقامه اباؤهم، ولكن على اسس جديدة تكون اثبت قدماً، واقوى على الايام سلاحاً ومضاءً ...

المذاهب ونحولها

وسيجد القارىء وهو يطالع ما يلي من فصول هذا الكتاب، كيف ان للاشتراكية والشيوعية اصولا في الاسلام، وكيف تتخذ الدعايات السياسية

من العقائد الدينية اسباباً وعللاً، علها تظفر باغراضها من وراء تلقين عامة الناس، بان من الدين ان يعيشوا على قدم المساواة مع سواهم، لا فرق في ذلك بين غني وفقير، وكبير وصغير، عاملين على ازالة الفروق، وانكار الكفائات، وتجاهل الفردية والشخصية، في دنيا انما تقوم حضارتها على تفاوت الناس، وتفجر العبقريات، واختلاف الكفائات ...

والواقع ان بحث المبادىء الاجتماعية واتخاذ ما يظهر منها اول ظهوره كامر ثابت وعقيدة مقررة، من الصعوبة بالمكان الارفع، لان المبادىء الاجتماعية تتحول دائماً، تحولا يجعل البحث فيها عقيماً، وهذا التحول هو سنة عامة لجميع المعتقدات عند تولدها، فالعقائد لا يكمل بناؤها الا بعد فوزها، وهي تبقى مضطربة شاردة غير مستقرة حتى يتم لها ذلك، وهذا التبدل سر من اسرار نجاحها، فيه تتمكن من الالتئام مع مقتضيات الزمن، ومن ارضاء الرغائب التي لا حدّ لها عند جماهير الساخطين والناقمين ...

والمجتمع نفسه في نظمه ومعتقداته وفنونه عبارة عن حلقات مشتبكة من المشاعر والحوادث والافكار تأصلت في النفوس بالوراثة، وتكونت من مجموعها

قوته ، ولا يكون المجتمع ملتحم الاجزاء إلا اذا كانت هذه الوراثة الادبية متأصلة في النفوس لا في القوانين والعقائد والمذاهب فحسب ...

وهذا فالمبادىء نفسها لا تنتظم سبلها ، وتبلغ غاياتها الا اذا وافقت هوى الانسانية ، ولم تعارض النظم الكونية في تقاليدها واغراضها ، والقدرة على البناء من خصائص الزمن ، لا من خصائصنا ... واما الهدم فمن الامور التي نستطيعها ، ويمكن القضاء على مجتمع بسرعة لا مثيل لها ، ولكن تجديده ليس سهلا ولا سريعاً ، وعلى الانسان ان يعمل عصوراً طويلة في اقامة ما نقضه في يوم واحد ...

ويصدق ما قدمناه من اراء ايدها العلم ، واكدها التاريخ ، على كثير من المذاهب التي مكنت لنفسها فترة من الزمن في الارض ، فلما زالت حماسة اصحابها ، وعادوا الى انفسهم وجدوا ان ما حاولوا اقامته من نظم ليس يتفق وطبيعة الزمن ، ومصلحة الجماعة المستقرة ، فانكروا ما انشأوا ، وهدموا ما اقاموا وعادوا سيرتهم الاولى ... وكأن القوم ما كانوا ...

وسيطالع القارىء في الفصول التي تلي ، تاريخ حركة من اعظم الحركات السياسية والاجتماعية في العالم ، تبسطت في امصار الاسلام اواخر القرن الثالث ، ثم تحولت الى حركة ثورية حاولت فيما حاولته هدم الدنيا القديمة ، وانشاء دنيا جديدة على انقاضها ، فلم توفق إلا على قدر ، ولم تنجح إلا في امصار معينة من ارض الاسلام ، ومردّ هذا ان الحركة نفسها لم تكن من الاخلاص بالمكان الارفع ، ولا كان القائمون بها من الذين يضحون بانفسهم ومصالحهم في سبيل المجموع والانسانية ، ولو كانوا كذلك لكان للامصار العربية حديث جديد ، وتاريخ جديد ...

وزعيم هذه الحركة عبدالله بن ميمون بن ديصان شخصية فذة ما في ذلك شك ، ولكنه كان يعمل لنفسه ، اكثر مما كان يعمل للدعوة ، وكان همه الهدم ، اكثر من الانشاء ، وقد وفق في الهدم الى حد بعيد ، ووفق فوق هذا الى انشاء الدولة الفاطمية ، وهي دولة تبسطت عشرات الاعوام وكان لها شأنها واثرها في تاريخ الاسلام ...

ترى من هي هذه الشخصية ؟ وما اصلها ؟ ... وهل كان الرجل مسلماً حقاً ، ام انه كان ملحداً لا يؤمن بدين من الاديان ... ؟

المصادر التي بين ايدينا تختلف في نشأته اختلافاً عظيماً ، وقد ذكرنا بعضها في كتابنا هذا ، ولكن الاجماع ينعقد على اننا امام شخصية تعرفت على كل الاديان وبحثت كل المذاهب، حتى استقرت في المادية فالالحاد ، وهي نتيجة طبيعية لكل مغامر يحاول استثمار الدين لمصالحه الخاصة .

وشيء آخر ايضاً وهو ان اكثر هؤلاء الذين اثاروا الفتن في العالم الاسلامي العربي ، وحاولوا نشر التعاليم الثورية والمادية ، انما يرجعون في اصولهم الى الاعاجم ، ويرجعون في عقائدهم الى مذاهب اخرى من مجوسية او يهودية وهو ما يبعث على القول بان الاسلام كان طري العود في قلوبهم ، وانهم اتخذوه اداة لاغراضهم السياسية ، فكانت هذه الدماء وهذه الفوضى التي عمت الامبراطورية العباسية اواخر عهدها بالانهيار والاضمحلال ...

عودة الى الانشاء

وفي مرجوي ان يصادف كتابي هذا هوى في

قلوب القراء يترسمون فيه الصورة البارعة التي وصفتها في اول المقدمة ... يوم كنا ولا تسل كيف كنا ... فنقسم على ان نلوذ ابداً ودائماً بهدي محمد سيد العرب من العدل الاجتماعي الذي اقره ودعا اليه، نساعد البائس الفقير والضعيف العاني، مقدرين المنتج العامل والمفكر النابه، لا نتورط في ضجة ولا صخب ليس من ورائها مصلحة عامة، وفائدة قومية، متخذين من اخطاء الماضي عظة، عاملين على احياء الامجاد الغابرة لتصبح امراً واقعاً وحديثاً ضخماً..

ان في الفصول التي تلي دروساً تنبعث منها عظات كثيرة، لعل اهمها ان الامة التي لا تفطن لقوميتها، ولا تقيم وزناً لتاريخها، انما تهدم بيدها معالم حضارتها، قاضية بذلك على كل ما تفتخر به امة تحترم نفسها من شرف واباء، وعزة قومية، وروح فياضة.

المؤلف

بيروت محرم ١٣٦٤
كانون الثاني ١٩٤٥

فهرس الكتاب

صفحة	
٥	الاهداء
٧	المقدمة
١٧	الاشتراكية قبل الاسلام
٢٧	الاشتراكية في الاسلام
٤٠	الحالة الاقتصادية والمالية في العهدين الاموي والعباسي
٤٨	اول ثورة اشتراكية في الاسلام
٥٧	الخلافة والسياسة
٧٧	نشوء الاسماعيلية الباطنية
١٠٧	عبدالله بن ميمون
١١٩	الشيوعية في الاسلام القرامطة وثوراتهم في العراق والبحرين
١٣٦	الشيوعية تشق طريقها في سورية والحجاز
١٥١	الخلاف بين الفاطميين والقرامطة
١٦٨	النظام الاجتماعي عند القرامطة

الاشتراكية قبل الاسلام

الاشتراكية عند الفرس

ليست الاشتراكية المعاصرة ، ولا الشيوعية الحاضرة من نتاج الفكر الاوروبي الحديث ، فان لهما في التاريخ العربي اصولاً واسباباً وفنوناً يصح ان نعرض لها بشيء كثير من الاتزان والتفكير السليم .

يجمع المؤرخون اليوم على ان الحركات الدينية والثورية ، انما هي في جوهرها حركات اقتصادية مادية ، يعمل دعاتها لاصلاح حالة المجتمع المادية والاقتصادية ، والحركات التي لا يكون من جوهرها الاصلاح المادي والاقتصادي تكون ابداً معرضة للفشل والخذلان .

واذا نظرنا الى الحركات الاشتراكية قبل الاسلام ، والتي امتزج فيها الدين بالسياسة امتزاجاً رقيقاً ، نرى ان الحركة المزدكية كانت اجلها خطراً واعظمها اثراً ، ظهر

(مزدك) صاحبها ، وهو فارسي سنة ٤٨٧ ميلادية ، وكان من اهل نيسابور ، (١) ودعا الى مذهب ثنوي فقال بالنور والظلمة ، مساوقاً بذلك ما قاله زاردشت الفارسي قبله ، من ان العالم يحكمه آلهان ، اله الخير واله الشر ، وان لكل آله ذاتاً مستقلة ، وهو ما اجمع اكثر المؤرخين عليه ، وان كان هناك من يقول انه كان موحداً في الدين ، ثانوياً في الفلسفة ، ومعنى هذا « انه من ناحية العقيدة الدينية كان يرى العالم الهاً واحداً ، واما اذا تعرض لشرح فلسفة العالم ، وما فيه من خير وشر يتطاحنان فهو ثنوي يرى ان في العالم قوتين .. »

ولكن الشيء الذي امتاز به مزدك هو في تعاليمه الاشتراكية ، فكان يرى ان الناس ولدوا سواء فليعيشوا على قدم المساواة ، واهم ما تجب فيه المساواة المال والنساء ..

ويذهب الشهرستاني « الى انه كان ينهي الناس عن المباغضة والاختلاف والقتال ، ولما كان مرد ذلك النساء والاموال ، فقد احلّ النساء ، واباح الاموال ، وجعل الناس يشتركون في اموالهم ونسائهم اشتراكهم في الماء والنار والكلاء ...

ويقول الطبري في وصف تاريخ العقيدة المزدكية (٢) :

---

(١) الطبري

(٢) الطبري جزء ٢ ص ٨٨ وما بعدها

« قال مزدك واصحابه : ان الله انما جعل الارزاق في الارض ليقسمها العباد بينهم بالتآسي ، ولكن الناس تظالموا فيها ، وزعموا انهم يأخذون للفقراء من الاغنياء ، ويردون من المكثرين على المقلين ، وان من كان عنده فضل من الاموال والنساء والامتعة ، فليس هو باولى به من غيره ، فارتضى السفلة ذلك واغتنموه ، وكاتفوا مزدك واصحابه وشايعوهم ، فابتلى الناس بهم ، وقوي امرهم ، حتى كانوا يدخلون على الرجل في داره فيغلبونه على منزله ونسائه واملاكه ... وكان مما امر به مزدك الناس وزينه لهم وحثهم عليه ، التآسي في اموالهم واهليهم ، وذكر ان ذلك من السير الذي يرضاه الله ويثيب عليه احسن الثواب ، وانه لو لم يكن الذي امرهم به وحثهم عليه من الدين ، كان مكرمة في الفعال ... »

وفي هذه التعاليم خصوصاً ما له علاقة بالمساواة في الاموال صبغة اشتراكية ظاهرة ، وقد اعتنق مذهبه آلاف من الناس وكان قباذ كسرى الفرس قد ايده اول الامر ثم انصرف عنه ، وقتله هو واصحابه سنة (٥٢٣) ميلادية .

الحياة الاقتصادية في مكة

واما الاشتراكية في الاسلام فانها من الروعة والجدة والاعتدال بالمكان الارفع ، ونظن اننا نحسن صنعاً اذا عرضنا الى الحياة الاقتصادية في مكة قبل الاسلام ، ليتفهم القارىء التطورات الفكرية التي تتابعت قبل ظهور الاسلام

والتي كان لها مكانها الملحوظ في التاريخ العربي ...

كانت مكة بلداً تجارياً وسوقاً تجارياً حوالي القرن الخامس الميلادي ، وكانت الى هذا ايضاً مركزاً للقوافل التي تمر بها من جنوب الجزيرة العربية تحمل حاصلات الهند واليمن ، في طريقها الى سورية وفلسطين ومصر ، وفي اواخر القرن السادس اصبحت مدينة تجاريه غنية ، تصدر عنها مختلف البضائع الى اسواق الحجاز ومدنه ، ويرجع تقدمها هذا لسببين : اولهما مركزها الجغرافي ، وما فيها من الماء ، وثانيهما : انها اصبحت مركز الوثنية العربية لقيام الكعبة في ارضها ، واجتماع اكثر الاصنام فيها .. فكان العرب يحجون اليها في اوقات معلومات من كل عام ، يقومون بشعائرهم الوثنية حول الكعبة ، ثم يذهبون الى الاسواق المختلفة كعكاظ ، وسوق المجنة ، وذي المجاز حيث يبيعون ويشترون ، ويتقارضون الشعر ، ويتقاضون ، وكان اهل مكة يستثمرون هذه الاسواق ، كما كانوا يستثمرون الاصنام لتجارتهم ومصالحهم ...

وفي القرآن الكريم وصف رائع لهذه الروح التجارية التي غلبت على اهل مكة ، رجالاً ونساءً ، فألهتهم عن كل شيء ، كما ان فيه تنديداً عظيماً بالمرابين من اهلها ، الذين كانوا يمعنون بمن يقع تحت ايديهم من المحتاجين الى استقراض المال امعاناً مخيفاً مفجعاً ... حتى لقد كانوا يطلبون من المستقرض الاربعين والخمسين واحياناً المئة بالمئة على مال يقرضونه له للموسم المقبل ، وهو ما يفسر

لنا نقمة رسول الله عليهم ، ونزول الآيات المتتابعة المكية خاصة ، بمنع الربا ولعن المرابين ... الذين كانوا يعاملون ضحيتهم معاملة وحشية ، اذا تأخر عن الدفع فلا يتورعون عن دفع امرأته الى البغاء لتدفع ما على زوجها من الدين ، وكان مصير الفتاة الذي يعجز والدها عن الوفاء مثل ذلك ، وفي كثير من الاحيان يكون نصيب المديون الاسترقاق حتى يفي دينه ، او الهرب الى الصحراء تخلصاً من الجور والعدوان ، ويجد القارىء في القرآن الكريم خصوصاً في السور المكية حملات شديدة وتنديداً لاذعاً بالمرابين والمستثمرين واصحاب رؤوس الاموال الشجعين..

وقد كان من نتيجة هذه الحياة الاجتماعية في مكة ان ظهرت فيها طبقتان من الناس ظهوراً واضحاً ، طبقة الملأ الاعزاء (١) من قريش ، اصحاب الاموال ، وسدنة الكعبة ، واصحاب السلطة وطبقة الفقراء الارقاء (٢) الذين كانوا لا يملكون شيئاً ، والذين كانوا لا ينعمون بحرياتهم الا بمقدار ...

هذا التفاوت المخيف في حياة اهل مكان ، كان مما آلم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقد كان رسول الله فقيراً يشعر بمضض الفقر ، وكان الى ذلك ينعم باحساس مرهف ، جعله يذوب حزناً واسى على الحالة السيئة التي

---

(١) سورة المنافقون

(٢) سورة الشعراء

كانت تعيش فيها اكثرية ساحقة من ابناء بلده وعشيرته ..

محمد واهل مكة

الم يصف القرآن الكريم كيف كان سيد العرب يتيما فآواه الله ، وضالا فهداه ، وعائلا فاغناه ، كذلك كان محمد ، وكذلك اواه الله وهداه ، واغناه ، وبذلك يكون سيد العرب قد تصعّد في كل الادوار الاجتماعية ، من يتم وفقر ومسغبة ، وهي حالات نفسية ضرورية لكل مصلح ، لازمة لكل رسول كريم ...

ومن المؤكد عندنا ان سيد العرب قد عُني بهذه العوامل الاجتماعية التي رآها وعرفها في مختلف اطوار حياته ، يوم كان عاملاً قبل زواجه ، فتاجراً بعدها ، كما ادرك بثاقب نظره ، واتزان عقله ، التفاوت الاجتماعي الذي كان في بلده ، والاجحاف المخيف الذي كان يلحق باكثرية سكانه ، فكان من اثر ذلك صوته الصارخ ضد الاغنياء والموسرين المستثمرين ، وتأييده القوي للفقراء والصعاليك المظلومين ...

فلما كانت النبوة ، وتنزلت آيات القرآن ، كان اكثر الآيات دوراناً ، دعوة التوحيد ، ودعوة الاصلاح ، التوحيد بالله لا اله الا هو ، ودعوة الاصلاح والعدل ، لحياة ارفه وارحم للمظلومين والبائسين .

اثارت هذه الدعوة التي كان مدارها حياة اجتماعية جديدة ، فيها من العدل والانصاف والمساواة ، ما يجعل

اتباعها احسن حالا ، واوفر حظاً ، مما هم عليه من شظف العيش ، وفنون الاستعباد ، تأثيراً عظيما بين المستضعفين من اهل مكة ، فاتبعوا رسول الله وايدوه ، كما ايده بعض المنصفين واصحاب الاخلاق الرفيعة من الاغنياء ، امثال ابي بكر وعثمان بن عفان ، ثم بعض الأقوياء اصحاب الشخصيات امثال عمر بن الخطاب ، ولكن هؤلاء كانوا عدداً قليلا بالنسبة للاكثرية من المساكين والفقراء والمستضعفين .

الاغنياء

ولقد وقف الاغنياء واصحاب السلطان من اهل مكة اول الامر من الدعوة الاسلامية موقفاً وسطاً ، لانه لم يكن يدور في خلدهم ، انها ستنجح وتظفر ، ولكنهم لما شاهدوا تبسطها ونجاحها ، ادركوا الخطر الذي يهددهم من استفحالها وظفرها ، وعلموا ان سلطانهم التجاري القائم على تمركز الوثنية في الكعبة ، وتردد الاعراب اليها ، اشهراً معلومات في كل عام ، والقائم في الوقت نفسه على هذا الربا الفاحش الذي كان يستغله كبارها من مستضعفيها واصحاب الحاجات فيها ، سوف يقضي عليه الدين الجديد الذي كان من اهم غاياته هدم الوثنية ، وتحريم الربا ... والمساواة بين المسلمين ...

وليس هنا مجال التبسط في تاريخ الغلبة الاسلامية ، فان لهذا مكاناً غير هذا الكتاب ، يكفي اننا عرضنا

لهذه الحياة الاجتماعية الاسلامية عرضاً جديداً ، يساعد القاريء على تفهم الفصول الآتية من هذا الكتاب ...

قد يقول بعض المستشرقين ان في دعوة الرسول شيئاً من الاشتراكية ، وقد يكون في كلمتهم هذه تفسيراً لدعوة العطف والرحمة والعدل تصدر عن الرسول لمصلحة البائسين والفقراء ، ولكن اشتراكية الاسلام اذا كان هناك اشتراكية تختلف عن الاشتراكية المعاصرة في كثير من مصادرها واسبابها ونتائجها ...

ولعلنا نحسن صنعاً اذا عرضنا لوصف الاشتراكية المعاصرة وصفاً رقيقاً ، ثم اعقبنا ذلك بوصف النظام الاجتماعي المالي في الاسلام ، بحيث تظهر الفروق واضحة جلية ظاهرة ...

الاشتراكية المعاصرة

ترجع المذاهب الاشتراكية الحديثة في اصولها الاولى الى القرن السادس عشر ، يوم اخذ الذهب يتدفق على الدول الاوروبية ، ويوم غمرت هذه الدول موجة من الايمان بعظيم شأن الذهب وقدسيته فراحت تحجزه وتحتفظ به ، وتمنع تصديره ، عاملة في الوقت نفسه على تعزيز الانتاج في ارضها بحيث يفوق صادرها واردها ، فيتدفق الذهب عليها ، بما فرضته من رسوم على الواردات التي تأتيها من الخارج .

ومن المؤكد ان هذا النظام قيّد الفرد ، وحدّ من

عزمه ، واساء الى نشاطه ، وجعل الحكومة تقوم مقامه ، وقد اثبت التاريخ ان الحكومة لا تحسن التجارة ، وان من حسن السياسة ، وبعد النظر ترك الناس احراراً ، ما دامت هذه الحرية لا تسيء الى المجموع ولا تضر بالمصالح العامة ...

اسموا هذا المذهب مذهب التجاريين ، ثم دار الزمن دورته ، وقام في اوروبا كتاب دعوا الى الحرية التجارية ، ونادوا بتحطيم الحواجز الجمركية ، وكان لدعوتهم اثرها ، فاقرت الدول المختلفة المبدأ الجديد ، وكان من نتائجه ظهور اصحاب الاموال ، وعمالهم من الفقراء ، وكان من المفروض والحالة هذه ان يتبرم العمال من فقرهم وسوء حالهم ، وكان من المنتظر ان يعمل اصحاب الاموال للاحتفاظ بما في ايديهم من الاموال والسلطان ، واشتد الخلاف بين الفئتين لما ظهرت الصناعة الحديثة ، واخذت تقوم مقام العمال في كثير من اعمالهم ، فازداد الاغنياء غنى ، وازداد العمال فقراً وسوء حال ...

المال والعمل

اخذ بعض المفكرين يعنون بهذه الحالة الجديدة ، واتهموا المذهب الجديد – الحرية التجارية – بما آل اليه العامل من الشقاء والبؤس ، وقالوا بان هذا المذهب قد اخل بالتوازن الاجتماعي ، وان رأس المال ليس وحده المنتج للعمل ، فالعامل شريك لرأس المال ، ولولا العامل

ما نعم اصحاب الصناعات والاعمال بثرواتهم ، فلماذا والحالة هذه ينفرد صاحب المال وصاحب العمل باكثر الارباح ، ولماذا لا ينعم العامل ببعض هذه الارباح التي هي من ثمرات كده ونشاطه ..

وهذا كان اول العراك والخلاف ..

ليس من شك في ان التاريخ عبارة عن كفاح الطبقات ، فكان الكفاح بين الاحرار والارقاء حتى تحرر العبيد ، ثم انتقل الى ثورة مسلحة بين العامة والاشراف — كما هو الشأن في الثورة الافرنسية وغيرها من الثورات — فلما ظهر اصحاب الاموال انتقل الكفاح الى حرب عاتية بينهم وبين العمال ، لا يزال يحتدم اوراها حتى اليوم .. ولا يزال المصلحون والمنصفون من المفكرين يعملون على تسويتها وازالة الاختلافات القائمة بشتى الوسائل ومختلف الوان السبل ... وهم واصلون الى حل موفق ما في ذلك شك ولا ريب ...

ويمكن تلخيص الاسس التي تقوم عليها المذاهب الاشتراكية الحاضرة مع تعدد الوانها واشكالها بانها كلها تقوم على تقويض النظام الحالي ليحل محله نظام يضمن توزيع الثروة تنظيما عادلا بين الجميع ... والغاء الملكية الخاصة ، كرأس المال ، والارض ، والمصانع التي تستولي عليها الدولة ، وتستثمرها للخير العام .. كما يفرض على الناس جميعهم ان يعملوا لحساب الدولة باجور متساوية وفاقاً لقيمة العمل الذي يصدر عن كل منهم ..

الاشتراكية في الاسلام

دعوة ابي ذر

العدل الاجتماعي

لست ارى في الاسلام شيئاً من الاشتراكية على النحو الذي يفهمه منها الغرب، ولكنني في الوقت نفسه ارى عدلاً اجتماعياً يقوم على المساواة، والاحسان الى الفقير مع ضمان الحرية الشخصية لكل فرد من افراد المجتمع، وتقدير العاملين فيه من العلماء والمحسنين تقديراً بعيد المدى، خطير الاثر ...

وهذا العدل الاجتماعي ان كان جديداً عند الاوربيين فهو ليس بالجديد في الاسلام، ولو راح كل منا يتأثر سيد العرب في سياسته واخلاقه ودعوته الى العدل والانصاف والاحسان، لكانت الارض غير الارض، ولكانت الحياة الانسانية العامة، اكثر الفة واعدل نظاماً وابعد مضيّاً في معارج التقدم والفلاح ...

فالاسلام مثلاً لم يقل بالغاء الملكيات ، ولا راح يدعو الناس الى ما لا طاقة لهم به ، من العمل جميعاً لحساب الدولة القائمة باجور متساوية او متفاوتة بعض التفاوت ، ولكنه ترك كل انسان وحظه في الحياة ، فمن اراد ان يعمل فليعمل ، فباب العمل مفتوح للجميع وطريق الاحسان امام كل فرد من افراد المجتمع ،ولكنه في الوقت نفسه لم يترك الامر على غاربه فقرر الزكاة على الناجحين المفلحين ، تؤخذ من الاغنياء وترد على الفقراء ، كما دعا كل مفلح انعم عليه الله ، للنظر لاخيه الفقير ، فيرعاه ويساعده ، ويأخذ بيده ، مؤكداً له ان في ذلك مرضاة الله ، ومرضاة الله شيء عظيم ...

الزكاة في الاسلام

والزكاة في الاسلام شيء خطير لا مثيل له في تاريخ المبادىء الاجتماعية العالمية ، وقد اراد الله بها خدمة الفقير والمسكين الذي لا يطيق عملا ، او لا يحسن من الاعمال ما يساعده على سد رمقه ، وخصها بالاهتمام الكثير ، واقرها مع الصلاة ، في كثير من آي القرآن ، وشدد في تحذير الاغنياء من اهمالها ، ودعاهم الى العمل بحقها ، جاعلاً اياها من اساس الدين ، وقد كانت تنفق عهد رسول الله ، وعهد الخلفاء الاولين وفاقاً للسنن الاسلامية ، فلما كان الامويون صارت ضريبة من ضرائب الدولة تنفق على المساكين على قدر ، وتنفق في اكثر الاحايين على

حاجات الدولة ، ثم تولتها الايام بالعفاء ، فاهملتها الدولة، واهملها اكثر الناس ...

وكذلك نرى ان الاسلام ليس مسؤولا عن اهمالها، فهي من اساس الدين كما قدمنا ، والمسلم لا يستطيع اهمالها ، الا باهمال ركن من اركان الاسلام ، ومن اهمل احد اركان الاسلام ، كان مهملا لحقوق الله ، واهمال الحقوق الالهية امر خطير ..

يدعو المستشرقون الزكاة فناً من فنون الاشتراكية الحديثة ، وهي في الواقع كذلك ولكن على قدر ...

الملكية

وكما دعا الاسلام الى ازالة الفوارق بين الشعوب المختلفة ، دعت الاشتراكية الحديثة الى مثل ذلك ،ولكن الاسلام كان اكثر اعتدالا ، فلم يقل بالغاء الملكيات على النحو الذي تقول به الاشتراكية الحاضرة ، فالمساواة المطلقة بين الناس شيء صعب تحقيقه ، مستحيل اقراره ، وقد قرر الاسلام في الوقت نفسه حرية الفرد بكل ما في الكلمة من معنى ، محذراً الناس من التباغض والاختلاف ، والظلم والعدوان ، لا يفرض للفرد حقاً على اخيه الانسان الا بالعدل والانصاف ، وفي ظل القانون ، منادياً بصراحة بالغة « ان ليس للانسان الا ما سعى » ، فكل فرد ونشاطه ، وكل انسان وجهوده ، وكل شخص وعمله ، فمن كان عاملاً محسناً فله احسانه ،

ومن كان بليداً متثاقلاً فعليه ثقاله ...

اشتراكية معتدلة

ومن المعلوم ان الثروات الضخمة وليدة الاحتكار والربا الفاحش ، وقد حرّم الاسلام الاحتكار والربا الفاحش ، ودعا اتباعه الى العدل التجاري فلا يسرق واحدهم رفيقه ، ولا يكتنز غنيهم امواله ، محبباً الى الاغنياء البر والاحسان ، مقرراً ذلك في غير آي من آيات القرآن ، متوعداً من يكنزون الذهب والفضة بعذاب عظيم .

ولعل من اروع ما في الاسلام هذه الايات التي تحبب الاحسان والبر الى الناس ، وتدعوهم الى ذلك مرة بعد مرة بعد مرة ، متوعدة حيناً ، مثيرة عواطف الناس حيناً آخر ، مؤكدة ان من ينفق بعض ماله لاغاثة الفقير والمسكين والمحتاج ، يجمع بين السعادتين سعادة الدنيا وسعادة الاخرة ...

وكذلك يرى القارىء ان في الاسلام اشتراكية لينة معتدلة ، دعت الناس الى التعاون وازالة الفوارق ، كما تركت لكل انسان حقه في الملك لا يشاركه فيه غيره تشجيعاً له على المضي في العمل والاحسان ، محذرة الفرد من التواكل والتكاسل ، ناعية على الاغنياء بخلهم واكتنازهم للاموال ، مطرية المحسنين ، ممتدحة العاملين في سبيل المثل العليا ، والاماني البعيدة الضخمة ...

قريش والثروة

فلما كان عهد عثمان بن عفان ثالث الخلفاء الراشدين ، تناسى الكثيرون من الاغنياء هذه الدعوة اللينة الرقيقة ، من اطعام الفقير ، ومساعدة البائس ، واعانة المسكين وابن السبيل .

واقبلت قريش بعد وفاة عمر بن الخطاب تستغل لين عثمان بن عفان وحياءه الجم ، فمشت الى الامصار تقتني المال الوافر ، والعقار الواسع والاقطاعات المترامية الاطراف ، على ضفاف دجلة والفرات والنيل . وتتهالك ارضاً هي بحكم نظام عمر وقف على عامة المسلمين يشتركون جميعاً في غلتها ، فعظمت ثروة قريش ، وصارت الى رفاهة عيش عظيمة ، فاقتنى الكثيرون الدور والقصور ، والاموال والاراضي ، وبلغ مال الزبير بعد وفاته خمسين الف دينار ، وترك الف فرس والف عبد ، والف أمة ، وكذلك طلحة بن عبيد الله ، ابتنى داره بالكوفة المشهورة ، وكانت غلته في اليوم الواحد آلاف الدراهم ، وكذلك عبد الرحمن بن عوف كان على مربطه مائة فرس ، وله الف بعير ، وعشرة آلاف من الغنم ، وقد ذكر سعيد بن المسيب ان يزيد بن ثابت حين مات خلف من الذهب والفضة ما كان يكسر بالفؤس غير ما خلف من الاموال والضياع بقيمة مائة الف دينار .

ومات يعلى بن امية وخلف خمسماية الف دينار وديوناً

على الناس وعقارات وغير ذلك (١).

ومهما يكن من المبالغة في الوصف المتقدم فان المؤرخين يجمعون على تدفق الثروة على المسلمين وتوسعهم في الدور والاموال والضياع والقصور والخيول وغير ذلك مما كان غريباً في ايام عمر، كثيراً في ايام عثمان ومن اتى بعد عثمان.

وطبعاً حملت هذه الحالة بعض المسلمين على الانتقاد والمعارضة، ومن هؤلاء ابو ذر الغفاري.

ابو ذر الغفاري

كانت غفار من القبائل الضاربة حول المدينة، وكانت في الجاهلية تحترف قطع الطريق واعتراض القوافل التي تمر في ارضها، وهي حرفة كانت تساوق ذلك الزمن وعاداته، فنشأ أبو ذر نشأة اعرابية، واتصف بما يتصف به الاعراب عادة من صدق اللهجة وصراحة القول، ومَرن على حياة البادية بما فيها من خشونة وسذاجة، ويقولون انه كان ذكياً بارعاً أدرك ما عليه قومه من فساد العقيدة، فاطرّح الاوثان ووحّد الله، وذلك قبل ان يبعث سيد العرب بثلاث سنين، فلما ظهر عليه السلام وبلغت أبا ذر دعوته، استأنس بها، ورحل اليه من فوره، وما هو إلا ان لقيه وسمع منه القرآن حتى أسلم، وكان

(١) المسعودي

خامس خمسة هم كل الجماعة الاسلامية اذ ذاك ، ولقد أبى إلا ان يجهر في مكة بدينه الجديد، فتعمدته قريش بالاذى ثم ذكرت أنه من قوم تمر قوافلها من ارضهم ، فكفت عنه ...

عاد أبو ذر بعد ذلك الى البادية فدعا قومه الى الاسلام فأسلم بعضهم ، ثم أسلم سائرهم عندما هاجر الرسول الى المدينة ، وبذلك اصبحت غفار من القبائل التي ظاهرت الرسول في محاربته قريشاً ، وقد لبث أبو ذر في قومه الى ان تمت الهجرة ، وانقضت ايام بدر وأحد والخندق ، ثم قدم المدينة وخرج مع الرسول في غزوة تبوك ولزم صحبته الى ان توفى رسول الله .

وقد وردت أحاديث تشير الى أخلاق أبي ذر فيروي ان النبي سمعه يقول لآخر :

— يا ابن الأمة .

فقال عليه السلام : ما ذهبت عنك اعرابيتك بعد ...

وتخلفت بأبي ذر راحلته عن الجيش في غزوة تبوك فتركها وادرك الجيش ماشياً وحده .

فقال الرسول : يمشي وحده ويموت وحده ويبعث وحده ...

وورد فيه ايضاً : ما أقلت الغبراء ولا أظلت الخضراء من ذي لهجة أصدق من أبي ذر .

واقام ابو ذر بعد وفاة الرسول بالمدينة ، فلما كانت خلافة عمر بن الخطاب ألحقه عمر في العطاء بأهل بدر

تشريفاً لقدره وان لم يكن منهم ، ففرض له خمسة آلاف درهم في السنة . ثم خرج الى الشام ، وغزا مع معاوية ارض الروم سنة ٢٣ هـ وذهب غازياً الى قبرص بعدها ثم عاد الى دمشق فاستقر بها ..

دعوة ابي ذر

فلما وقف تيار الفتوح العربية منتصف خلافة عثمان أقام أبو ذر بالشام فرأى ما آل اليه المسلمون من الحال التي سبق وصفها ، رأى رجال الدولة تسمى الفيء مال الله ، توصلاً بهذه التسمية الخادعة الى الاستئثار به او التصرف فيه كما يشاؤون ، ورأى المجتمع قد استحال فريقين متباينين : اغنياء مترفين وفقراء معدمين ، فأثارت تلك الحال حفيظته ، وهو الذي شهد دورة الفلك كاملة ، ورأى العرب في جاهليتهم وما صاروا اليه في خلافة عثمان ، فنصب نفسه لمكافحة تلك الحال مهما جرّ عليه ذلك ، فأعلن برنامجه في الاصلاح . فاما الفيء فيجب ان يسمى (مال المسلمين) لا (مال الله) ، وأما الاغنياء فيجب ان يردوا فضل اموالهم على الفقراء .

وذهب أبو ذر الى ان المسلم « لا ينبغي له ان يكون في ملكه اكثر من قوت يومه وليلته او شيء ينفقه في سبيل الله او يعده لكريم » أخذ ذلك من ظاهر قوله تعالى « والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم » ، وبذلك

البرنامج أصبح أبو ذر داعية اشتراكياً صريحاً ، وقد شاعت دعوته في فقراء الناس ومحاويجهم ، فثاروا بالاغنياء وطالبوهم ان يشركوهم في أموالهم ، فتوجه الاغنياء بالشكوى الى أمير الشام لذلك العهد ، معاوية بن أبي سفيان .

ابو ذر ومعاوية

أحب معاوية قبل كل شيء ان يختبر صدق أبي ذر فيما يدعو اليه ، فبعث اليه في جنح الليل بألف دينار ، ولما كان الصبح أرسل اليه يستردها بحيلة احتالها ، فوجد أبا ذر قد فرقها كلها ، فعلم معاوية أن الرجل يفعل ما يقول ، فأقبل يجادله فيما يدعو اليه وعلى سبيل الترضية له قبل ان يسمي الفيء (مال المسلمين) بدلا من (مال الله) ، ولكن أبا ذر أصرّ على ان ينزل الاغنياء عن فضل اموالهم للفقراء ، وعبثاً حاول معاوية ان يقنعه بان الآية التي يستدل بها انما نزلت في اهل الكتاب وحدهم ، ولما أعيا معاوية أمر أبي ذر ، جنح الى الشدة ، فنهى الناس عن مجالسته وتهدده بالقتل فلم ينفعه ذلك ، فرفع امره الى عثمان فأمره بأشخاصه اليه ، فأشخصه اليه على شر حال .

ابو ذر وعثمان

لم يكن ابو ذر في المدينة بأسعد منه في الشام ، فقد

حاول عثمان ان يصرفه عن دعوته ، ويريه انه لا يملك ان يجبر الناس على الزهد وعلى ان يؤدوا غير فريضة الزكاة ، وان كل الذي يملك هو ان يدعو المسلمين الى الاجتهاد والاقتصاد ، ولكن أبا ذر كان يريد برنامجه كاملاً ، وولع به اهل المدينة والتفوا حوله ، فرأى عثمان آخر الامر ان يحصر الخطر في اضيق دائرة ممكنة ، فنفى أبا ذر الى الربذة وهي مكان في البادية نائ عن المدينة .

لم يكن ابو ذر ثائراً ولكن طالب اصلاح ارتآه ، ومما يدل على عدم نزوعه الى الثورة انه وهو في منفاه مرَ به ركب من اهل الكوفة ممن كان منحرفاً عن عثمان ، فطلبوا اليه ان ينصب راية يلتف حولها كل من كان على شاكلته وشاكلتهم ، فأبى ذلك بتاتاً ونهاهم عنه ، وأما مذهبه في الاصلاح فجديد ما في ذلك شك ، فالاسلام لا يحظر الثروة ولا الملكية ، ولا يوجب على المسلم حقاً في ماله غير الزكاة ، وكل ما ينهي عنه الاسلام في هذا الصدد انما هو ان تجعل الثروة غرضاً مقصوداً لذاته ... (لم أعتقد انك ستشرب من هذا الكوب)

وحركة أبي ذر الاشتراكية تساوق حركة مزدك الاشتراكي الذي ظهر بفارس على عهد قباذ كسرى الفرس ، والذي كاد يقلب نظام المجتمع الفارسي رأساً على عقب لولا عزم كسرى وحزمه ، فاذا عرفنا ان اليمن خضعت لفارس قبيل الاسلام وان يهوديا من اهل صنعاء

يعرف بابن السوداء ادعى الاسلام في خلافة عثمان وجعل يطوف الامصار الاسلامية داعياً الى الثورة ، وأنه هو الذي حرك أبا ذر حين آنس فيه هذه الميول الاشتراكية ، اذا عرفنا ذلك كله فقد وضحت الصلة بين الحركة الفارسية القديمة وبين الحركة الاشتراكية عهد الخلفاء الراشدين .

ابن السوداء

ويؤكد الطبري ان ابن السودا هو الذي اوعز الى ابي ذر بهذا الرأي الجديد في الدعوة الاشتراكية ، وان ابن السوداء هذا اتى ابا الدرداء وعبادة بن الصامت فلم يسمعا لقوله ، واخذه عبادة الى معاوية وقال له :

— هذا والله الذي بعث عليك ابا ذر .

وابن السوداء هذا لقب لقبّ به عبدالله بن سباء ، وكان يهودياً من صنعاء ، اظهر الاسلام في عهد عثمان ، وحاول ان يغير على المسلمين دينهم ، وبث في البلاد عقائد كثيرة ضارة ، وكان قد طوّف في بلاد كثيرة ، في الحجاز والبصرة والكوفة والشام ومصر ، فمن المحتمل ان يكون قد تلقى هذه الفكرة من مزدكية العراق واليمن ، واعتنقها أبو ذر حسن النية في اعتقادها ، وصبغها بصبغة الزهد التي كانت تجنح اليها نفسه ، لانه كان من اتقى الناس واورعهم وازهدهم في الدنيا ، وكان من الشخصيات المحبوبة التي اثرت في الصوفية (١)

(١) فجر الاسلام ص ١٣٠

وفاة ابي ذر

لبث ابو ذر في منفاه نحو ثلاث سنين يعاني ألم الوحشة وكبر السن، وخيبة الامل، فلما أدركه الموت كانت وفاته مؤثرة جداً، ودالة على شدة ثباته على مبدئه حتى النهاية، وعلى أنه حقاً قد مشي وحده ومات وحده.

يروي ابن سعد في طبقاته أنه عندما حضرت الوفاة أبا ذر، حارت امرأته في امرها لتوحدها في تلك الفلاة، فكانت تشد الى كثيب تقوم عليه فتنظر، ثم ترجع اليه فتمرضه، ثم ترجع الى الكثيب، فبينا هي كذلك اذا هي بنفر يتقدمون نحوها، فألاحت بثوبها، فأقبلوا حتى وقفوا عليها، قالوا:

— مالك؟

قالت: امرؤ من المسلمين يموت تكفنونه.

قالوا: ومن هو؟

قالت: أبو ذر... فقدوه بآبائهم وامهاتهم، ووضعوا السياط في نحور الابل، يستبقون اليه حتى جاؤه فقال لهم:

— ... ... ولو كان لي ثوب يسعني كفناً لم أكفن إلا في ثوب هو لي، او لأمرأتي ثوب يسعني لم أكفن الا في ثوبها، فأنشدكم الله والاسلام الا يكفنني رجل منكم كان اميراً او عريفاً او نقيباً او بريداً.

فكل القوم قد كان قارف شيئاً من ذلك الا فتى من الانصار، قال:

ـ انا أكفنك فأني لم اصب مما ذكرت شيئاً، أكفنك في ردائي هـذا الذي عليّ، وفي ثوبين من غزل امي حاكتهما لي.

قال: انت فكفني...

فكان ذلـك الفتى الانصاري هو الذي تولى تجهيزه ثم دفنوه جميعاً.

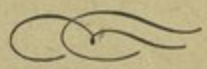

الحالة الاقتصادية والمالية
في العهدين الاموي والعباسي

تطور جديد

فاذا كان العهد الاموي ، وتدفقت الثروة بامتداد الفتوحات وتنوع الصناعات واستتاب السلام ، تناست الدولة الاموية ما هو مفروض عليها من جمع الزكاة وتوزيعها على وجوهها بين المستحقين ، كما تناست في الوقت نفسه دعوة سيد العرب الى ازالة الفروق في المجتمع العربي ، فكان من اثر هذا ، إن اخذ العرب واخذت الدولة الاموية نفسها تنظر الى الاجانب الذين يعتنقون الاسلام نظرة خاصة ، لا يساوونهم بالعرب ، ولا يعملون لتحسين حالاتهم السياسية والاجتماعية والمالية ، مما اثار سخطهم ودفعهم الى تأييد خصوم الدولة القائمة ، لعلهم يجدون عند هؤلاء الخصوم ، ان ظفروا ، ما يطلبونه من عدل وانصاف ...

ومن المؤكد اليوم ان تجاهل الامويين للمبدأ الاجتماعي الذي نادى بـه سيد العرب ، وامر اصحابه بالمضي فيـه والعمل لاقراره ، من المساواة في الحقوق والواجبات بين جميع المسلمين على اختلاف قومياتهم وطبقاتهم الاجتماعية ، كان من اهم الاسباب التي دعت الى تقويض سلطانهم ، وانهيار دولتهم ...

وليس يعني هذا ان المسلمين الجدد ، من غير العرب كانوا محرومين كل الحرمان من العدل والانصاف ، فان المستشرقين ومؤرخي العرب قد اجمعوا على ان حـالة هؤلاء قد تحسنت تحسناً عظيما بدخولهم الاسلام ، وكانت حالتهم احسن وافضل من حالة اخوانهم الذين ظلوا على دينهم ، ولكن الذي اريد ان اقوله ، ان هؤلاء ... وكانوا يطلقون عليهم اسم (الموالي) ، لم يكونوا ينعمون بعد دخولهم الاسلام ، بالحقوق والواجبات التي كان مفروضاً ان ينعم بها كل مسلم ، وفاقاً لدعوة محمـد ووصيته لقومه ، فكان من هذا ان نقم المسلمون الجدد ، عـلى الدولة الحاكمة ، لا على الاسلام ، وكان من اثر هـذا ان اخذوا يؤيدون بالقول والعمل من تنكر لها ، وقام بالثورة على سلطانها ...

اسباب الاختلاف

لقد دعا النبي ، ودعا خلفاؤه من بعـده ، الى ان يُعفي كل من يعتنق الاسلام ، سواء اكان من العرب

ام من غير العرب ، من الجزية والخراج ، إلا اذا كانت الارض خراجية قبل الفتح الاسلامي ، ولكن الامويين – إلا عمر بن عبد العزيز – تجاهلوا هذا المبدأ ، واقروا الجزية والخراج على من اسلم ، وعاملوهم كما يعاملون غير المسلمين ، مضحين بمبادىء الدين الجديد في سبيل خزانة الدولة العامة ...

ومثل ذلك انهم اطلقوا ايدي العرب في اقتناء الارض خارج الجزيرة العربية ، وهذا يخالف سياسة ابي بكر وعمر بن الخطاب ، فكان من اثر هذا ان تهافت اصحاب السلطان من العرب على امتلاك الارض الجديدة ، واخذوا باستثمارها فانتقلت اكثر الاراضي الخصبة اليهم ، وهم عدد قليل اذا اقيسوا بعدد المسلمين ، واسوأ من ذلك مخالفتهم لسياسة عمر بن الخطاب فيما له علاقة بالارض التي كانت تؤدي الخراج قبل الفتح ، والتي قرر عمر ان تؤدي الخراج نفسه بعد الفتح ايضاً ، تعزيزاً منه لموارد الدولة العامة ، ولكن الامويين لم يساووا بين اصحاب هذه الارض ، فقد كانت هناك فروق كثيرة بين الملاكين القدماء ، والملاكين الجدد من العرب اصحاب السلطان ورجال الدولة ، وهو ما اوقع التفرقة والخلاف بين المسلمين انفسهم من اصحاب الاملاك ، لان ارض العربي المالك كانت تنعم بامتيازات لا تنعم بها ارض المسلم الاعجمي المالك مثله ، وفي هذا ما فيه من الفوضى والجور ...

كل هذه الاسباب التي بسطناها ، والتي ترجع في اصولها الاولى الى تذمر الموالى المسلمين من سوء الحالة المالية والاقتصادية والاجتماعية ، كانت من العوامل الفعالة في انهيار الامويين ، وتأييد هؤلاء الناقمين للعباسيين لما اخذوا يعملون ضد الدولة القائمة سراً وجهراً ، علهم يظفرون بالمساواة السياسية والمالية في الدولة الجديدة .

الدولة العباسية

ولكن السياسة العباسية المالية لم تكن احسن حالاً من سياسة الامويين ، فقد زادت مصارفات الدولة زيادة فاحشة ، وزادت الضرائب معها ، فتذمر الفلاح ، وتنكر العامل للدولة القائمة ، واشتدت الحركات القومية في فارس وغير فارس بين سكان البلاد المغلوبة ، خصوصاً بعد مقتل البرامكة ، وتدخل الجيش في شؤون الدولة ، وتنافس الامراء والحكام والوزراء في جمع الاموال واكتنازها على حساب المكلفين ، واخذ كثير من الامراء المحليين في الانسلاخ عن السلطة المركزية ، وكثرت الثورات ، وظهرت بعض المباديء الاشتراكية بظهور بابك الخرمي في اواخر ايام المأمون منادياً بالاشتراكية والاستقلال الفارسي ...

المسألة الاقتصادية في التاريخ

ويؤكد المؤرخون ما للعوامل الاقتصادية من الاثر في

الاحداث التاريخية الغابرة ، والانقلابات العظيمة الماضية وليس من ينكر منهم اثر هذه العوامل ، واذا كان هناك من اختلاف ، فانه لا يتعدى تحديد الاثر الذي لهذه العوامل ، فبعضهم يقول انه من الخطورة بحيث يفيض على ما سواه ، والبعض الاخر يقول انه خطر كسواه من العوامل الاخرى ..

واول من بسط هذه النظرية بسطاً علمياً دقيقاً « كارل ماركس » ، فقد ذهب يقول ان نظام الملكية في الامة ، وتوزيع الثروة ، وطريقة الانتاج المتبعة تقسم الامة الى طبقات اقتصادية هي في الواقع طبقات اجتماعية ثم تنمو بين هذه الطبقات علاقات تصبح مع الزمن اساس النظام السياسي للدولة ... ومن المفروض عندئذ ان تصبح الطبقة التي تنعم باكبر نصيب من العقار والثروة ، صاحبة السلطان ، فتسن الشرائع للذود عن هذه الثروة وصيانتها ، ومعاقبة المعتدين عليها ، كما تسيطر في الوقت نفسه على كل الوان الحياة والثقافة في الامة بقوة السلطان الحكومي الذي تنعم به ، وقوة الثروة التي تسيطر عليها ..

ولم يغفل فلاسفة اليونان عن هذه الظاهرة الخطيرة في سياسة الامم وتقدم الجماعات ، فدعى افلاطون الى الشيوعية لان الامتلاك الفردي في نظره ، يؤذي الامة في اخلاقها ونظامها الاجتماعي ، واما ارسطو فكان اكثر اعتدالا ، ولكنه قال : ان الدولة هي نتيجة لازمة

للسياسة الاقتصادية القائمة ، وان نظام الحكومة يتبع توزيع الثروة على الامة ...

الزراعة

والواقع ان الحضارة وليدة الحياة الزراعية ، التي منها وبسببها نشأت الحكومة ، لان الرابطة بين البدو هي رابطة القرابة والسلالة ، فجميع افراد القبيلة ينتمون الى اب واحد ، والامتلاك شائع بينهم لا يختص به فرد دون الاخر ، واما الرابطة بين المتحضرين سكان المدن والقرى فهي الارض او الوطن ، الذي يقيمون ويعيشون فيه ، والفرد عندهم الذي يمتلك دون الجماعة ...

« والزراعة اوجدت الحكومة والرق ، واوجدت طبقة الكهنة والاشراف ، كما اوجدت المقايضة ثم التجارة . »

والزراعة هي التي دعت الناس الى التحضر بما فرضته عليهم من المقام في ارض واحدة ، للاعتناء بهذه الارض ، وعلى ذلك تكون الحضارة وليدة الزراعة ، ووليدة هذا النظام الاقتصادي الذي نشأ عن الزراعة ...

وسنرى فيما يلي من فصول كيف ان المسألة الاقتصادية والاستبداد المالي كانا من الاسباب الاولى لكل حركة ثورية في الاسلام ، وان الاسباب السياسية الاخرى كانت سرية لا يعلمها إلا بعض مدبري الحركة ، وكانت ثورة بابك الخرمي اشتراكية شيوعية ، تشترك مع الشيوعية الحاضرة في كثير من تعاليمها حتى في العلم

الاحمر الذي كان شعارها ...

ومن المؤكد ايضاً ان الاسماعيلية والقرامطة ، كما سنرى مفصلا في هذا الكتاب ، كانوا يقيمون دعوتهم السياسية على اسس اقتصادية ، وافقت هوى الفقراء من الناس فايدوهم وضحوا بانفسهم في سبيلهم ...

مسألة الطبقات

ويرى المفكرون ان الاختلافات الشعبية تعود الى تفاوت الطبقات الذي يرتكز على تفاوت انواع الدخل ، المتصل اتصالا وثيقاً بالنظام الطبيعي الذي يعيش الناس عليه ، والذي يقع من الصرح الاقتصادي كحجر الزاوية ، ويرى فريق آخر ان تفاوت الطبقات مرده تفاوت الكفايات ، وخلاصة هذا الرأي ان المال مقياس الكفاية ، وان تفاوت انواع الدخل مرده تلك الصفات التي تسبب النجاح في الاعمال ، واذا اغفلنا جانباً عامل الحظ ، فهذا الرأي يشتمل على قسط من الحقيقة ، لان النجاح في الاعمال يكون بقدر ما يتوافر في الفرد من كفاية شخصية ، ومن الاراء الشائعة ان معظم احوال التفاوت امر محتوم لا مفر منه ، وانه اذا وزعت الثروة بالتساوي بين الناس فلا تنقضي فترة قصيرة من الزمن حتى تظهر من جديد اعراض تفاوت جديد ، ومعنى هذا انه اذ انجلت حالة التفاوت ، مع بقاء الاسباب التي افضت اليه في الماضي ، فلن تتوانى حالة التفاوت من ان تكون

امراً واقعاً بعد مدة قصيرة من الزمن .

وهذا الرأي اذا أُحكم تفسيره كان اقرب الى العقل منه الى غيره ، فمرجع التفاوت بين الطبقات يرجع الى سببين : الفروق الطبيعية في المواهب والكفايات ، وبقاء المزايا المكتسبة بواسطة البيئة والميراث ، واذن فالتفاوت المالي يرجع الى ذكاء فرد من الناس واستعداده للحصول على دخل اعظم من دخل سواه ، ممن هو اقل منه ذكاءً واستعداداً ، او يكون سببه مسألة الميراث التي تجعل الولد يرث عن والده ما ليس يستحقه ، ولا كان بمقدوره جمع بعضه ، ولو امضى العمر كله ...

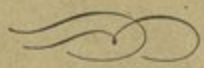

اوّل ثورة اشتراكية في الاسلام

الحركات الفكرية

تطورت الحركات الفكرية في الاسلام تطوراً خطيراً في عهد الامبراطورية العباسية ، وانتشرت المذاهب الكلامية انتشاراً عظيما ، فحديث المعتزلة وخصومهم يملأ صفحات التاريخ العباسي ، وتبسط اصحاب المذاهب الفقهية في حلولهم ومذاهبهم جعل لهذا العصر ميزة خاصة على غيره من عصور التاريخ ...

ولعل اهم المذاهب خطراً واعظمها شأناً ما سعى اليه بعضهم من التوحيد بين الدين والفلسفة اليونانية ، خصوصاً الفلسفة الافلاطونية الجديدة ، وهذا ما رمى اليه اخوان الصفاء والاسماعيليون وغيرهم ممن سجل التاريخ اخبارهم واستبقى لنا بعض ثمرات اقلامهم وابحاثهم ...

ومن اهم الحركات الفكرية والسياسية التي ظهرت في

هذا العصر، حركة بابك الخرمي التي كانت تجمع بين السياسة والاشتراكية معاً، والتي كانت ترمي الى امرين: اولهما استقلال البلاد الفارسية، وثانيهما: بث الدعوة الاشتراكية، ليظفر اصحاب الفكرة السياسية باكبر عدد من الناقمين على النظام العباسي المالي والاجتماعي..

وقد تمكن اصحاب هذه الفكرة كما يظهر من مطالعة المصادر التي بين ايدينا، من تنظيم شؤونهم وحركتهم تنظيما ناجحاً قوياً، ولا ادلّ على ذلك من ثباتهم نيفاً وعشرين سنة يحاربون جيوش الخليفة، الواحد بعد الاخر طيلة هذه السنوات العديدة.. وتأييد مناصريهم لهم تأييداً قوياً، مكنهم من هذا الثبات العجيب الغريب... وليذكر القاريء ان هذا الثبات كان في آخر عهد المأمون وعهد المعتصم، وهما من اعظم خلفاء بني العباس بعد هارون الرشيد قوة وسلطاناً...

ومن المؤكد ايضاً ان من اهم اسباب الحركة رغبة المسلمين القوميين من غير العرب في الاستقلال عن سلطان العرب، وتأسيس دول مستقلة قومية لا تربطها ببغداد رابطة ولا سلطان...

خطر الحركة

قامت البابكية على سواعد اجناس مختلفة من العنصريات التي كانت تحت سلطان العباسيين، فقد ايدها اكثر الفرس، وايدها بعض الارمن واكثر الاكراد،

والاقل من الترك ، مما يدل على ان اكثر الامم المغلوبة كانت تعمل للاستقلال والتحرر ، وانها انما كانت تنتظر الفرصة السانحة لتحمل السلاح ، وتنزل ساحة القتال ..

وهناك ما هو ادهى وامر ، وهو ان كثيراً من المصادر التي بين ايدينا تؤكد تشجيع بعض عمال الخليفة من العرب ، الثائرين على ثورتهم ، رغبة منهم في استغلال الفرصة السانحة للاستقلال بولاياتهم عن سلطان الخلافة ، (١) ويذكر البغدادي في كتابه « الفرق بين الفرق » « ان عدد من انضم الى بابك بلغ الثلاثمائة الف نفس » وهذا ولا شك عدد هائل يدل على مبلغ الخطر الذي كان يهدد الامبراطورية العباسية ...

اسباب الحركة

ويستدل من اقوال المؤرخين فيما يذكرونه عن اسباب هذه الحركة انها كانت اجتماعية اقتصادية ، فقد كان انصار بابك يعاملون اسراهم ولا سيما الجند منهم بالحسنى ، وكانوا احياناً يطلقون سراح الجندي شرط ان لا يحاربهم مرة ثانية ، وذكروا انهم كانوا يحسنون معاملة نساء خصومهم واطفالهم (٢) وكانوا ايضاً يتسامحون مع المسلمين ممن كان تحت سلطانهم في اقامة شعائرهم الدينية

---

(١) انظر تاريخ اليعقوبي

(٢) الطبري ج ١٠

مما يدل على ان الغرض الذي كان يرمي اليه بابك لم يكن مناوءة الاسلام ، او محاربة العرب ، وانما الاستقلال وتحبيب الناس بحركته ، ومحاربة النظام الاجتماعي والمالي الذي كان سائداً في عصره ... وابداله بنظام ليس فيه طبقات ، فلا سيد وعبد ، ولا غني وفقير ، ولا ظالم ومظلوم ، بل نظام قوامه العدل والمساواة ..

المبادئ

ويمكن تلخيص النظام البابكي في انه كان يرمي الى نزع الاملاك الواسعة من اصحابها الذين اغتصبوها سابقاً من الفلاحين او الدولة ، وتوزيعها مجاناً على المزارعين اصحاب الحاجة ...

ثم تحرير المرأة الشرقية من عبوديتها ، واعطائها ما للرجل من الحقوق ، وهو نظام قريب من مذهب (مزدك) الفارسي ، ولا يبعد ان يكون بابك قد تأثر به ، وعمل على تطبيقه بصورة جديدة ، خصوصاً وقد ثبت لنا ان المذهب المزدكي لم يمت بالمذبحة التي جرت عهد قباذ كسرى الفرس ، وانه — كما يقول صاحب معجم البلدان — كانت لا تزال هناك فئة من انصاره اختبأت بعد محنته في جبال اذربيجان المنيعة حيث ظلت تحافظ على مبادئها الى ايام السلجوقيين ...

والظاهر ان الفكرة المزدكية كانت تنشر خفية بين سكان اذربيجان والبلاد المجاورة ، مستميلة اليها كل ناقم

غاضب على حياته الاجتماعية من الفرس وغير الفرس ، ومن متطرفي الاسماعيلية والباطنية الذين كانوا يعملون بكل ما في وسعهم لهدم الامبراطورية العباسية ، وكانت الحركة منظمة كما يظهر ، يتزعمها ابداً خبير بامور الناس ، حتى وصلت الزعامة الى رجل يدعى جاويدان بن سهل المتوفي سنة (٨١٦م) وهو استاذ بابك وصديقه ، فسلمه الزعامة قبل وفاته ، لما تفرس فيه من الاستعداد لقيادة الحركة الى حيث الآمال العظام ...

شر وبلاء

ومن المفروض طبعاً ان لولا سوء حالة الناس في اذربيجان ، ولولا سوء النظام المتبع ، وبعده عن العدل والانصاف ، لما استطاعت حركة كهذه ان تعيش هذه الاعوام العديدة ، وان تظل قوية ثابتة ... لقد كانت الارض في اذربيجان نهباً مقسماً بين طبقة محدودة من الناس ، وكانت هذه الطبقة تستغل الفلاح استغلالاً فظيعاً مخيفاً ، وكان الفلاح في الارض مثل العبد لا يحصل على الاقل من قوته ، وكان لا يملك حق الزواج إلا ان يسمح له سيده – على غرار الحالة في اوروبا في القرون الوسطى – وهذا يدل على ان حكام بغداد ودمشق لم يكونوا يعنون بحالة الطبقات الفقيرة ، وكان كل همهم الحصول على الضرائب المقررة ، وهذا ما دعاهم الى ابقاء النظام الاقطاعي في اكثر البلاد المغلوبة ، واليعقوبي المؤرخ

الذي زار هـذه البلاد يؤيد اقوالنا هـذه ، ويقول : ان الفلاحين – او طبقـة العلوج كما يسميهم – كانت تسوء حالتهم يوماً عن يوم ، مما كان يضطرهم مراراً الى الخروج على ساداتهم وتأليف عصابات للنهب والسلب ، وزاد ان الفلاحين الاحرار لم يكونوا احسن حالاً ، خصوصاً بعـد ان اصبح جمع الخراج والمكوس وسائر الضرائب في ايدي ملتزمين من اصحاب الوظائف والنفوذ في البلاد يتقاضونها بجميع الطرق ، لا يراعون في جمعها إلا مصالحهم وشهواتهم ...

وقد ذكر صاحب معجم البلدان : ان الحجاج بن يوسف عامل الخليفة الاموي عبـد الملك بن مروان على العراقين ، كان يجمع من مقاطعتي فارس والاهواز ثمانية عشر مليوناً من الدنانير فقط ، فصاروا يجمعون منها بعد اربعين او خمسين سنة اثنين وثلاثين مليوناً ، ثم اخذت هـذه الضريبة تزداد الى ان بلغت حوالي النصف الاول من القرن التاسع الميلادي – اي قبل ظهور بابك وشيعته بعشرين او ثلاثين سنة – خمسة وثلاثين مليوناً التزم جمعها وتأديتها الى بيت المال فضل بن مروان ومعنى هذا ، ان الضرائب التي كانت تؤخذ من المقاطعتين قد تضاعفت في مئة سنة مع بقاء الارض على حالها ... (١)

---

(١) معجم البلدان في مادة (اهواز) و (فرس) ، وقد استفدنا في هذا الفصل من ابحاث بندلي جوزي في هذا الموضوع .

فاعجب بعد ذلك كيف لا تنشط في منطقة كهذه فكرة اشتراكية ترمي الى انتزاع الارض من اصحابها وتوزيعها على الفلاحين، فيتحرر الفلاح، ولا يعود هناك سبيل الى استغلاله واستثماره، باقصى ما يكون الاستغلال والاستثمار ...

اخلاق وعادات

على انه اذا كان في هذه الحركة بعض الحق، فان هناك من يذهب من المؤرخين الى انها كانت تضم بين جاشيتها الكثير من الدعارة والفسق، كأن تكون المرأة مشاعاً للعموم كالارض مثلاً، وهذه نظرية مزدك كما قدمنا، ويقولون ان زاردشت الفارسي نفسه يقول بمثل هذا في مذهبه، وان بابك انما كان يقول بما قال به زاردشت، وانه كان على رأيه ومذهبه، وهذا كما يظهر ظاهر وحق... لان هناك من المؤرخين الذين يؤيدون الحركة البابكية من اقرّ بذلك واعترف به، وقالوا: ان بابك لما يأت جديداً وانما اتبع من سبقه، وان البطالسة في مصر كانوا لا يرون بأساً في زواج الاخ باخته، الى ان اتى الاسلام وحرم هذا كل التحريم، ومن المؤرخين من يضع جماعة بابك بين اللصوص واصحاب الفتن وقطاع الطريق.

ويؤكد المؤرخون انه كان للبابكيين ليلة عيد يجتمعون فيها في جبالهم على الخمر والزمر، وانهم كانوا ينكحون

الاخوات ، وبعض ما حرم الاسلام نكاحه ، وانهم كانوا لا يأكلون لحوم الحيوانات ولا يذبحونها ، لانهم كانوا يعتقدون ان قتلها يمنع ارواحهم من التحرر من السجن المادي الذي هو الجسم ، ومزدك حرّم عليهم العداوة والبغضاء والنزاع ، ودعاهم الى المساواة ، وكانوا دائماً يقول : ان سبب البغض والاختلاف بين الناس هو تفاوت الدرجات الاجتماعية ... (١)

فشل الحركة

هذه اهم مبادىء الحركة البابكية ، وقد ظهرت هذه الحركة كقوة مسلحة في صيف سنة ٨١٦ او ٨١٧ ميلادية على حدود جمهورية اذربيجان الحاضرة وهي من اعمال الاتحاد السوفياتي اليوم ، ثم اخذت تمتد وتقوى حتى عمت نواحي فارس تقريباً ، ولم تهتم حكومة بغداد للحركة اول الامر ، ولم تبعث الجند لوقفها الا بعد ثلاث سنوات من ظهورها ، وكان ذلك في اواخر عهد المأمون ، فلما توفي هذا نصح شقيقه المعتصم بالمضي في حرب بابك حتى يقضي عليه ، ففعل المعتصم ، ومزق جنده الحركة وانضارها بعد حروب عديدة وخسائر جسيمة ، وقبضوا على بابك ، واتوا به الى بغداد ، حيث صلب على الجسر ، ثم قطع ارباً ارباً ...

---

(١) تاريخ حياة الملك قباذ (كتاب بالافرنسية لمؤلفه كريستنسون)

واما اسباب فشل الحركة فيعزوها المؤرخون ، الى ان البابكيين حصروا دعوتهم في الامة الفارسية ولم يشركوا فيها العرب ولا غيرهم من الامم ، وان الكثيرين ممن التفوا حولهم لم يكن يهمهم من هذه الحركة الفكرية إلا النكاية بالسلطة الحاكمة ، وبعضهم حارب مع بابك طمعاً في الحصول على بعض المنافع المادية لا اهتماماً منه بالاستقلال الفارسي ولا الاصلاح الاجتماعي .

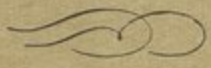

الخلافة والسياسة

الخلافة والامامة

عرفنا الخلافة في عهد ابي بكر وعمر بن الخطاب نظاماً هيناً رقيقاً رائعاً من نظم الحكم، يُكلف بها احد المسلمين ممن اشتهر اخلاصهم، وحُمد فعلهم، وعُرف فيهم الجلد والحزم على الاضطلاع باعباء الحكم، للمحافظة على حقوق الجماعة الاسلامية العربية، واخذها على السنة القويمة، والعمل النافع المفيد، والجري بها على كتاب الله وسنة رسول الله، بحيث لا يظلم كبيرها صغيرها، ولا يستعبد قويها ضعيفها، يقوم فيها من صار اختياره، مقام رسول الله من امّته، فيقضي بينهم بالعدل ويقسم الاموال على وجوهها بين المستحقين، ويضحي بصحته وماله ونشاطه في اصلاح امورهم، وتحسين سبل معاشهم، لا فضل لاحد من الناس عنده على غيره، إلا بالاثر

الصالح والعمل المنتج المفيد .

وعرفنا الخلافة في هذا العهد الاول من عصر الخلفاء الراشدين منصباً يستطيع الوصول اليه كل مسلم يستحقه ويصلح له ، لأن الرسول لم يقم بدعوته ليؤسس ملكا لأهله من بعده ، ولا عرشاً دنيوياً لابنائه ، ولا نعلم انه دعا الى ذلك وقال به ، ولا نعرف في الوقت نفسه ان الله اختاره لجماعة دون اخرى ، وانما نعلم انه ارسله عربياً رحمة للناس ، ونعمة للعرب ، فرسالته والحالة هذه ليست مقصورة على اهله ، ولا كانت الغاية من ارساله تولية جماعته ، ولو كان الامر كذلك لولاهم المناصب في حياته وزعمهم في عهده ، وما نعلم انه فعل شيئاً من هذا الا نادراً ، والنادر لا يقاس عليه حكم من الاحكام

كانت رسالة محمد بن عبدالله تقوم على امرين تحرير العرب من العبودية بتوحيد صفوفهم ، والتوفيق بين قبائلهم ، ثم نشر الرسالة الالهية بين قوم ضلوا سواء السبيل ، فمزقتهم الفوضى ، واضاعتهم الاختلافات ، وافسدت روحهم الوثنية ، وتسربت اليهم مختلف العادات الفاسدة فاصبحوا عالة على نفسهم ، وعالة على المجتمع الانساني في عصرهم .

ابو بكر

فلما انتقل رسول الله الى ربه استخلف المسلمون ابا بكر بعده ، لانه كان احزمهم ، ومن اشدهم ايماناً

واخلاصاً برسالة محمد بن عبدالله ، ثم كان الى ذلك اقواهم على تحمل الاعباء والمصاعب التي ستتعرض لها الجماعة الاسلامية بعد انتقالها من عهد الرسالة الى عهد الاستقرار والحكم والادارة ، وقد كان لا معدي عن ظهور هذه المصاعب بين عهد الرسالة وعهد الاستقرار ، وكان اول هذه المصاعب ثورة بعض القبائل العربية على رسالة محمد والاسلام ، فوقف ابو بكر من هذه الثورة موقفاً رائعاً حازماً ، مؤكداً بالبرهان انه خير من وُسدت اليه الخلافة بعد محمد ، واقوى من اجتمعت حوله الكلمة ، واحزم من القت اليه امة ناشئة جديدة مقاليدها وامرها ، فقضى على الثورات القائمة ، ووحد الجزيرة العربية مرة اخرى ، واعاد الامن الى نصابه ، ثم سيّر الجيوش الى الشام والعراق يحملون مُثُل الاسلام العليا ، ورسالة محمد التحريرية العربية ، الى امم كانت حالتها الاجتماعية في حالة يائسة بغيضة ، بحيث فسدت اخلاقهم ، وتمزقت صفوفهم ، واختلفوا فيما بينهم ، فلم يكن واحدهم يفطن الى قوميته وعربيته وحريته ، ولم تكن جماعاتهم المختلفة تدرك ان من حقها ان تعيش حرة في مواطنها ، عزيزة في بلادها ، ناعمة بنظم اجتماعية وسياسية وقع عليها اختيارها ، لانه من حق كل انسان ان يعلم ويؤمن بان الحرية الدينية والسياسية والاجتماعية ، حق من حقوقه ، لا تستطيع قوة في العالم ان تمنعه عنها ، الا اذا توسلت الى ذلك بالطغيان والقهر والعدوان .

ويشاء ربك ان لا يطول عمر ابي بكر الخليفة الاول في الاسلام ، فاذا احس الخليفة انه ماض لربه ، وذاهب لمآبه ، دعا الناس اليه وابلغهم انه ولي عمر بن الخطاب عليهم بعده ، وانه لم يألهم النصيحة والامانة ، وانه مؤمن كل الايمان واثق كل الثقة ، ان عمر بن الخطاب احزمهم واقدرهم على تحمل اعباء الحكم بعده ، ثم طلب منهم ان يسمعوا للخليفة الجديد ويطيعوا .

وسمع المسلمون لعمر واطاعوا ، وكان عهد عمر غرة في جبين الاسلام والعربية ، اعزّ الله به الاسلام في اوله ، واعز به الجماعة الاسلامية في هذا العهد الدقيق من نشأة الدولة ، فما كان المسلمون العرب في عهد الفاروق يسمعون إلا اخبار الفتوحات العظيمة شرقاً وغرباً ، ولا كانوا يجدون حولهم إلا وحدة تامة ، وعدلا شاملا ، ومالا وفيراً ، يتدفق على خزانة الدولة العامة من مختلف الجهات ، وكذلك اعزّ الله العرب بعد ذل ، والفّ بين قلوبهم بعد تفرقة ، وحررهم من الاستعباد والتخاذل ، ومن اضطهاد طبيعة ارضهم ، فأصبح العربي بعد سنوات قصيرة ، يعيش ، لا كما يعيش الناس ، ويموت لا كما يموت الناس ، اصبح يحكم الارض المتحضرة في عهده ، واصبح يقوم مقام قياصرة الروم واكاسرة الفرس في السيطرة على العالم ، اصبح في صدر الوجود ، بعد ان كان التاريخ

لا يكاد يشعر بوجوده ولا يفطن لامره وشأنه ...

عثمان بن عفان

فاذا كانت خلافة عثمان بن عفان ، فقد تبدلت الارض غير الارض ، كان عثمان خليفة ليناً رقيقاً صار اختياره من بين رجال الشورى لسنه وورعه وتقواه ، ولكنه لم يكن بالخليفة القوي الحازم يأخذ الناس بمثل ما اخذهم به عمر من الشدة والحزم ، وهذه سياسة لا معدي عنها لانشاء دولة وتعزيز الحياة الاجتماعية والسياسية في امة ناشئة ... خصوصاً وان العرب في هذه الفترة من الزمن كانت ولا تزال تؤمن بالزعيم القوي الشكيمة الشديدة الحزم ، وكانت هذه الصفات ضرورة ملحة لضمان سير الادارة والنظام في الدولة الجديدة ، ولذلك فسد الامر بين عثمان والناس في عهده ، واختلفت بعض الامصار عليه ، وثار رجالها حول قصره ، وكان ما يعرفه القارىء من قتله ، وبقتله بدأت الفتنة في الاسلام . (١)

علي بن ابي طالب

فلما تولى علي الخلافة وجد نفسه امام اختلاف شامل وتمزق كامل ، وزعماء يعملون للدنيا وهو يريد الاخرة ، فتردد في سياسته ، واخفق في تثبيت ملكه ، وتريث حيث

---

(١) قتل عثمان في ١٧ حزيران سنة ٦٥٦ ميلادية

كان يجب الاقدام ، واقدم حيث كان يجب الاحجام ، ثم تمزقت صفوف اصحابه من حوله ، وانتقض بعضهم عليه وعظمت دعوة القائلين بامامته وامامة ابنائه من بعده ، فكان هذا اول ظهور التشيع بصورة واضحة جلية ...

فاذا كان الدولة الاموية ، فقد اصبح للشيعة القائلين بامامة علي واولاده من بعده ، وتقديمهم على جميع الصحابة والتابعين المسلمين مذهب مقرر ودعوة منظمة ، راحوا يحاولون اقرارها وانفاذها في فترات متعددة ، في عهد يزيد بن معاوية يوم حاول الحسين بن علي السير الى الكوفة مع اهله وبعض انصاره ، بدعوة من اهلها ، وفي عهد غير يزيد من خلفاء بني اميه ، فلا يوفقون ويقتلون ويشتتون ، ويصلبون ويعذبون ، وكانت هذه المآسي التي تصيب آل البيت تساعد على توطيد المذهب الشيعي ، وتعزز انصاره ، وتغذي قلوب ابنائه ، وما زال هذا شأن الشيعة في عهد العباسيين الذين راحوا يعاملونهم في اكثر الاحايين على النحو الذي عاملهم به الامويون ، حتى يوفق الشيعة الى تأسيس الدوله الفاطمية في مصر وهي دولة يشك بعض المؤرخين في نسبها ، وينكرون ان يكون خلفاؤها من آل البيت ...

العبرة الشيعية

وكذلك نرى ان الفاطميين او العلويين تمكنوا آخر الامر من تأليف دولة مستقلة لهم في مصر ، وكان

الادارسة العلويون قبلهم قد وفقوا الى مثل ذلك في المغرب الاقصى في العصر العباسي الاول ، حتى راح المستشرق « فان فلوتن » يقول : ومما هو جدير بالملاحظة ان هذه الطوائف التي نشأت بين العرب في البلاد التي فتحوها انما كانت ترمي الى غرض سياسي محض رغم ظهورها بهذا المظهر الديني ...»

والواقع ان الخلافة او كما يسميها الشيعة « الامامة » اساس نظرية الشيعة فعلي بن ابي طالب الامام بعد محمد رسول الله ، ثم تتسلسل الائمة عندهم بالترتيب من عند الله ، والاعتراف بالامام والطاعة له جزء من الايمان . والامام في نظرهم ليس كما ينظر اليه السنة ، فعند اهل السنة هو « نائب عن صاحب الشريعة في حفظ الدين ، يحمل الناس على العمل بما امر الله ، وهو رئيس السلطة القضائية والادارية والحربية ولكنه ليس لديه سلطة تشريعية ، الا تفسيراً لامر ، او اجتهاداً فيما ليس فيه نص . »

اما عند الشيعة فللامام معنى آخر ، هو انه اكبر معلم لانه ورث علوم النبي ، وهو ليس شخصاً عادياً بل هو فوق الناس .

الخلافة ادارة وحزم

وهنا لا بد من الاشارة والتعليق على هذه الظاهرة ، وهي ان علياً لم يكن بالرجل الذي يستطيع القيام

باعباء الدولة الاسلامية في العهد الذي توفي فيه رسول الله ليخلفه ويحل محله ، فقد كان لا يزال شاباً ، والعرب لا تقبل حكم الشباب ، وفي الصحابة من كان مثله صلة برسول الله ، وكان الى هذا ابعد غوراً في تفهم العقلية العربية والوان الادارة التي كان مفروضاً على الدولة الاسلامية ان تعتمد احد اشكالها ليصار الى تسيير دفة الحكم وفاقاً لها ، واذا كان رسول الله قد زوج علياً ابنته فاطمة ، فقد زوج عثمان بن عفان اثنتين من بناته ، فعثمان مثل علي صلة بمحمد بن عبدالله ، ومع ذلك لا نقول في عثمان إلا حقاً ، وهو انه كان رجلاً ورعاً تقياً وصحابياً كبيراً ، خدم الاسلام بماله ، ولكنه كان ليناً تقياً فاضلاً ، والتقوى ومختلف انواع الفضائل شيء والخلافة والادارة والسياسة شيء آخر . وكذلك الحال في ابي بكر ، فقد كان قريب الصلة برسول الله ، تزوج رسول الله ابنته عائشة ، وكان عمر بن الخطاب مثله ، تزوج رسول الله ابنته حفصة ، فاذا كانت المسألة مسألة قرابة وصلة رحم ، فقد كان هؤلاء الاربعة من الخلفاء اقرب المسلمين الى محمد بما صار من التزاوج بينهم وبينه ، هذا اذا استثنينا ابا سفيان الذي تزوج رسول الله ابنته ايضاً ... واما اذا كانت المسألة مسألة خلافة ومصلحة عامة ، فقد كان ابو بكر اقرب الجميع اليها واصلح الناس لها ، لان رسول الله قرّبه اليه في عهده ، وخصّه بعنايته ، ومثله في ذلك مثل عمر بن الخطاب ، فكانا بمثابة الوزراء عنده في عهد النبوة ، فلما

توفي رسول الله وجد المسلمون انفسهم امام حالة جديدة لم يفطنوا لها ، ولا بحثوا فيها ، وهي مسألة من يلي الامر بعد محمد صلى الله عليه وسلم ، ولو كان رسول الله قد اعلن عن رأيه في امر الخلافة ، لتقبل المسلمون امره ، وارتضوا من اختاره لهم ، واما القول : بان محمد نص على خلافة « علي » بعده ، فكلام لا تقوم عليه حجة ، ولا تؤيده وثيقة ولا اثر تاريخي ، و « علي » نفسه لم يحتج بذلك ، ولا قال به ، والمسلمون جميعهم ، وكانوا يعدون بالآف لم يسمع احدهم شيئاً من هذا ، ولا سمعنا احداً منهم قال بـه ، ومثل ذلك القول بضرورة قيام الخليفة من قريش ، فانه لا يزال حتى يومنا هذا قولاً من الاقوال الذي لم تقم عليه حجة ايضاً ، والخوارج وهم من العرب الخلص ، كانوا في ثوراتهم اول من انكره ، وقالوا بغيره ونقيضه ، ولو كان هناك نص لاحتجت به قريش في ذلك العهد ، ولا زاح الانصار يبحثون الخلافة بعد رسول الله ويطالبون بها ، والاحاديث المروية في هذا الشأن ضعيفة ... لان عمر بن الخطاب لما احسّ بالموت فكّر في تولية احد الموالي لو كان حياً ولم يمت قبله ، لان رسول الله امتدحه وقربه واكرمه وذكره بالخير ، واذن فمسألة الخلافة بعد رسول الله ، والخلافة في قريش ، قولان رقيقان لا تؤيدهما حجة كما قدمنا ، ولا حديث اجمع الائمة على صحته ... وهو ما اجمع اكثر المؤرخين عليه .

موقف دقيق

بقيت خلافة ابي بكر ، واختيار الناس له ، وهذه في اعتقادنا امر وُفق له المسلمون كل التوفيق ، واحسنوا فيه كل الاحسان ، ولو وَلي الامر غيره لتبدل وجه التاريخ ، وهذا القول ينطبق على عمر بن الخطاب ، لان موقفه من ثورة الردة كان فيه من الهوادة ما يدعو الى الاعتقاد بانه كان يفضل اخذ الامور بالحسنى ، ولكن الحوادث علمتنا ان مثل هذه السياسة كانت خطرة ، وان سياسة ابي بكر كانت المثلى ، واذا فموقف ابي بكر الحازم من حروب الردة كان اعظم خدمة افضى بها ابو بكر الى الاسلام بعد محمد ، ولو كان غيره مكانه لما وفق مثل توفيقه ، ولو كان « علي » بعد ذلك مكان عمر ، لما تمت هذه الفتوحات العظيمة في عهده ، وسبب ذلك ان علياً كان صاحب شخصية قوية تنظر الى كثير من الامور نظرة خاصة ، وكان من الذين يؤمنون بحق بني هاشم ، فكان من المفروض ان يقلدهم مقاليد الامور في عهده ، كما فعل بعد ذلك ، وكان من المفروض ان ينكر المسلمون هذه السياسة ، كما انكروها على عثمان قبله ، خصوصاً وان الفردية العربية ، والعصبية القبلية ، والروح الاستقلالية الخاصة كانت لا تزال شديدة الاثر بعيدة الغور بين العرب وعند الاعراب ...

واذا كان المسلمون قد قدموا ابا بكر وعمراً وسمعوا

لها واطاعوا ، فلأنها افنيا نفسيها في سبيل المجموع ، وضحيا بصحتها وعائلتها وعواطفها في سبيل العروبة والاسلام ، واقرا سياسة محمد لا يحيدان عنها ولا يبدلان ، وهذه التضحية الكاملة الشاملة مهدت لظهور الاسلام بعد رسول الله ، وساعدت في امتداده الى ما وراء الجزيرة ، وهي التي اذكت في الناس حب التضحية ، فكانت الفتوحات وكانت الانتصارات وكانت الامبراطوريات وكانت الحضارة ...

توحيد امة

ولقد شهدنا بعد ذلك ما كان من اخفاق سياسة عثمان في خلافته ، وشهدنا ما كان من اخفاق علي بعده ، والقول بأن علياً وَلي الامر وهو مدبر ، والاختلاف قائم والتفرقة شاملة ، فعذر واضح الضعف ، فقد ولي معاوية الامر والحالة مثل ذلك فنجح واخفق علي ، وولي عبد الملك الخلافة ، والفوضى اشد وادهى ، فوفق وفاز ، وكان الحال في ايام المنصور والمأمون مثل ذلك ، وقد فازا ، وقد ضربنا هذه الشواهد القليلة من التاريخ الاسلامي ، وفي التاريخ المعاصر مئات من امثالها تبرهن على ان اضطراب احوال امة ، وانشقاق احزابها ، وتمزق اطرافها لا يمنع عباقرة الناس من النجاح والفلاح ، فقد احيا مصطفى كمال تركيا من العدم والموت ، ونهض غيره بامته الى ما لا نهاية له ، ولم يكن مع كل من هؤلاء

من الرجال الا حفنة قليلة، كان جند علي وانصاره اقوى منها بداً، وابسط سلطاناً وامضى سلاحاً ...

والواقع ان عليا مع عبقريته الفقهية والعلمية كان رجلاً بعيداً عن المداراة، لم يوفق الى جمع جنده، وتوحيد صفوفه، مستعيناً بمال الدولة كما كان يفعل معاوية، ولعل اكبر خطيئاته العسكرية وقفه القتال في معركة صفين، لما رفع جند الشام المصاحف على رؤوس الرماح ودعوا شيعة علي الى كتاب الله، فان قبول علي بالتحكيم، كان فشلاً عسكريا وسياسياً من الطراز الاول، وهذا الفشل هو الذي مزّق جنده، واضعف سياسته، وقضى على خلافته، وهو في الوقت نفسه الذي مزق الاسلام الى سنة وشيعة، وكفى بهذا التمزيق حديثاً مؤلماً، كان ولا يزال بعيد الاثر في سياسة العالم العربي والاسلامي حتى يومنا هذا.

الفتنة في الاسلام

والواقع ان اشد واعظم ما مني به الاسلام هو هذا الخلاف الذي وقع بين المسلمين العرب، اواخر خلافة عثمان بن عفان، واذا كان عثمان معذوراً لسنه وشيخوخته، واجتهاده في بعض الاحكام التي صار الكلام فيها، فان زعماء المدينة مسؤولون عن هذه الفوضى التي عمت مدينتهم، وهذه الفتن التي وقعت فيها، وهذه الجناية الشنعاء التي صار ارتكابها على مرىء ومسمع منهم ...

لقد كان مقتل عثمان جريمة شنعاء مزقت المسلمين وفرقتهم حتى آل الامر الى القتال بالسيف ، وجرى بين علي وطلحة والزبير وعائشة وقعة الجمل المشهورة التي قتل فيها من المسلمين عدة آلاف في يوم واحد ، ثم جرت بين علي ومعاوية معركة صفين ، التي قتل فيها من المسلمين ما يقارب المائة الف عربي ، وهو عدد ضخم لم يقتل مثله من المسلمين في الفتوح الضخمة التي صار الاستيلاء فيها على العراق وفارس وفلسطين وسورية ومصر وبعض افريقيا ، وكان من شأن معركة صفين ظهور الخوارج الذين اضعفوا الاسلام والجيش الاسلامي ، وحاربوا الدولة الاموية حربا لا هوادة فيها مدى خمسين سنة تقريباً ...

افتراق الامة

وكان من شأن مقتل عثمان ان افترقت الامة الى ثلاث فرق ، فرقت بايعت عليا ودخلوا في طاعته ، وهم اكثر الصحابة وجمهور المسلمين ، وفرقة امتنعت عن الدخول في طاعته ومبايعته ، واظهروا الطلب بدم عثمان ، وهم معاوية ومن تابعه ، وكان هو الامير عليهم في خلافة عمر وخلافة عثمان ، ونويد بهم اهل الشام ومن والاهم من قبائل العرب ، الذين تألفهم معاوية بالعطاء والسياسة .

والطائفة الثالثة لم يبايعوا عليا ولا معاوية ، واعتزلوا الفريقين جميعا ، لم يؤيدوا هؤلاء ولا هؤلاء ، ولم يدخلوا

في الحروب والفتن ولم يحضروها ، منهم سعد بن ابي وقاص صاحب القادسية ، واسامة بن زيد ، وعبدالله بن عمر بن الخطاب ، ومحمد بن مسلمة الانصاري ، وكان مفتش عمر بن الخطاب على الحكام والولاة ، وابو موسى الاشعري ، وغيرهم ...

ومن هؤلاء من بايع عليا ولم يقاتل معه في حروبه وقد ذكر صاحب الاستيعاب هؤلاء فقال : «وتخلف عن بيعة علي اقوام ، فلم يكرههم علي ، وسئل عنهم فقال : «اولئك قوم قعدوا عن الحق ولم يدخلوا في الباطل ..»

معاوية وقتلة عثمان

والمؤرخ المعاصر حين يدرس الاحداث الماضية ، ويبحث الاسباب التي ادت اليها لا يستطيع ان ينكر ان اهمها كان موقف زعماء المدينة اللين من اهل الامصار لما حصروا عثمان بن عفان في داره ، فقد كان لزاماً على اهل المدينة ، ان لا يسمحو بمثل هذا ، وكان عليهم ان يتدخلوا بين اهل الامصار والخليفة ، وان يجبروا احد الطرفين على قبول تسوية عادلة ، اذا ما رفض قبول رأيهم ، ولو اجتمعوا على ذلك لوفقوا ما في ذلك شك ولا ريب ، ولا كان وقع ما وقع مما مزق الاسلام ، وادمى القلوب ...

وكان موقف علي بن ابي طالب الدقيق من قتلة عثمان ، مما احتج به معاوية ، واذا قال قائل إن معاوية

كان يتخذ تسليم القتلة حجة ، نقول اننا لا ندعو الى تسليمهم له ، وانما نقول بضرورة محاكمتهم والحكم عليهم حتى لا يتجرأ جمهرة من الناس على السلطة القائمة ، ورفض علي تسليمهم ، وعدم محاكمته لهم بحجة تفرقهم في القبائل ، واستعداد قبائلهم للدفاع عنهم ، يدل على انه لم يكن من القوة العسكرية بحيث يستطيع فرض سلطانه ، واذا كان هذا امراً واقعاً ، فكيف تريده ان يظفر على عدوه ، وهو ليس صاحب الامر بين اصحابه ؟

ولقد روى يحيى الجعفي في كتاب (صفين) باسناده ان جماعة سئلوا معاوية :

ـ أأنت تنازع علياً ، ام انت مثله ؟

قال : لا والله ، واني اعلم ان علياً افضل مني واحق بالامر ، ولكن الستم تعلمون ان عثمان قتل مظلوماً ، وانا ابن عمه ، وانما اطلب بدمه ، فأتوا علياً فليدفع الي قتلة عثمان واسلم له ...

فأتوا علياً فكلموه ، فلم يدفعهم ـ اي القتلة ـ اليه ...

واذا صحت هذه الرواية ، وليس هناك ما يمنع صحتها ، واكثر المصادر تؤيدها ، كان هذا برهاناً قاطعاً على ان حجة معاوية في الثورة كانت تتعلق بأمر تسليم القتلة اليه ، ولكن القتلة لا يجب ان يسلموا له ، لانه ليس قاضي المسلمين ، ولا هو الخليفة القائم ، وانما يجب ان تصار محاكمتهم امام الخليفة نفسه ، او من يختاره ،

وهذا ما كان على علي ان يفعله ، ولو فعل ذلك لقطع على معاوية حجته ، ولاضعف قضيته ، وجعل كثيراً من مؤيديه ينفضون من حوله ...

وفي كثير من المصادر التاريخية ما يؤيد تقدير معاوية لعلي بن ابي طالب ، واعترافه بفضله على غيره ، وكان معاوية يكتب بما ينزل به الى علي يسأله عنه ، فلما بلغه قتله قال :

– ذهب الفقه والعلم بموت بن ابي طالب ...

تفضيل علي

والمؤرخون من اهل السنة يجمعون على تفضيل علي وتقديمه على معاوية ، كما انهم ينكرون على بني امية سب علي ، وكتبهم مشحونة بالثناء عليه ومحبته وموالاته وجميع كتب الحديث مذكور فيها فضل علي واهل البيت ، ولكنهم في الوقت نفسه يتولون باقي الصحابة من اصحاب علي وغير اصحاب علي بما هم من اهله ، ويقدمونهم وفاقاً لمراتبهم ، وخدماتهم في سبيل الله ومحمد ، وقيمة الرجل عندنا هي في خدمته لله ورسوله ، وما افضاه الى الاسلام والعربية من خير ، لا في حبه لفلان وتفانيه في سبيل فلان من الصحابة ، لاننا في هذه الدنيا لا نعرف غير الله ، ولا نتولى غير محمد ، فلا إشراك عندنا في الدين ولا إشراك عندنا في حب محمد ، فالله ارسل لنا رسولا واحداً ، لا نعرف غيره ، ولا نقبل بحال من الاحوال

ان نضع احداً من المسلمين في مثل درجته ومرتبته ...

خروج الحسين بن علي

فلما كان عهد يزيد خرج الحسين بن علي الى الكوفة ، فقاتله جند يزيد وقتلوه ، فكانت هذه الفاجعة الجديدة خرقاً جديداً في الاسلام ، فشا بعدها امر الشيعة ، وحصل الخلاف والاختلاف بين الدولة القائمة ومن يناصرها ، وبين الشيعة الذين كانوا يتهمونها بالبغي على آل الرسول ومن يؤيدهم ، اذ كانوا اولى بالسلطان منها ، كما راحوا يكفرون كل من ايّد الدولة القائمة ، ولم يعمل على تأييد آل البيت ، واذا كان المعتدلون من الشيعة لم يكفروا خصومهم السياسيين ، فانهم فسقوهم وقالوا انهم بغاة ظلمة ...

ومسألة خروج الحسين بن علي رضي الله عنه من المسائل الخطيرة في التاريخ الاسلامي ، وقد تناولها المؤرخون بكثير من التبسّط والبحث ، واختلف فيها اهل السنة واهل البيت انفسهم ، فذهبت طائفة من اهل السنة ومن الصحابة ، كسعد بن ابي وقاص ، واسامة بن زيد ، ومحمد بن مسلمة ، وعبدالله بن عمر وغيرهم — وايدهم احمد بن حنبل ، وجماعة من اهل الحديث — الى ان الامر بالمعروف والنهي عن المنكر باللسان ان قدر على ذلك ، والا فبالقلب فقط ، ولا يكون باليد والسيف وان كانوا ائمة جور ...

وذهبت طائفة اخرى من الصحابة ومن بعدهم من

التابعين والائمة ، الى ان سل السيوف في الامر بالمعروف والنهي عن المنكر واجب اذا لم يقدر على ازالة المنكر الا بذلك ... وهو قول علي بن ابي طالب وعمار بن ياسر ، وابن عباس وابو سعيد الخدري ، وعائشة ام المؤمنين ومن معها كعمر بن العاص والنعمان بن بشير وهو قول عبدالله بن الزبير والحسين بن علي .. وهو . قول كل من قام على الحجاج وثار عليه ... وهو قول من ايد اهل البيت في ثوراتهم بعد ذلك ...

ولكن بن عباس نفسه نهى الحسين بن علي عن الخروج وفعل عبدالله بن عمر بن الخطاب مثل ذلك ، حتى انه لحقه خارج مكة ، على ثلاث ليال ، وسأله الرجوع ، فأبى ان يرجع ، فاعتنقه ابن عمر وبكى وقال :

ـ استودعك الله من قتيل ...

ونصح ابو سعيد الخدري الحسين ايضاً عن الخروج ، وقال سعيد بن المسيب : لو ان حسيناً لم يخرج لكان خيراً له ... وكتب اليه عبدالله بن جعفر بن ابي طالب كتاباً يحذره اهل الكوفة ، ويناشده الله ان يشخص اليهم ، وكذلك اخوه محمد بن الحنفية نهاه عن الخروج ، فأبى الحسين ان يفعل ، فحبس محمد بن الحنفية ولده فلم يبعث معه احداً منهم ، حتى وجد الحسين في نفسه على محمد شقيقه ...

والخلاصة ان شقيق الحسين نفسه وابن عباس وغيرهما من كبراء الصحابة انكروا على الحسين خروجه على

يزيد ونهوه عن ذلك خوفاً مما جرى عليه وعلى اهل بيته ، خصوصاً وقد كانوا لا يثقون باهل الكوفة ، ولا يؤمنون بقوة الحسين حتى ولو اجتمع اهل الكوفة على مناصرته حتى النهاية .

استغلال هذه الحوادث

ومن المؤلم ان يستغل هذه الحوادث المؤلمة في سبيل الخلافة ، اناس عزّ عليهم ان يقوض العرب بالاسلام عرش ملوكهم ، فيندسون بين المسلمين ويتخذون من آل البيت سبباً ، فيزعمون لعلي انه بُغي عليه منذ اول يوم ، ويدعون له العصمة على نحو ما كان اجدادهم يدعونها لملوكهم من المجوس ... وان يكون من عبدالله بن سبا ، او ابن السوداء ، وامثاله ممن تظاهروا بالاسلام ، ما كان من الدعاية لتأليب الناس على عثمان ، بحيث كان من اثر دعايتهم تمزيق الامة الى فرق واحزاب ، وكانت وصية رسول الله الى المسلمين في المرض الذي توفي فيه ، ان يوحدوا صفوفهم ، ويؤلفوا قلوبهم ، ويكونوا بنعمة الله اخواناً ...

هذا وعلي قد انكر الغلو فيه ، وانكر ابنه محمد بن الحنفية ، على شيعته دعواهم ، انه يعلم المغيبات وان علمه الهي ،... وقد زاد الغلو بعدهما ،... وسكت آل البيت كما يقول الطبري : « عما ينسبه انصارهم اليهم من وضعهم في غير مواضعهم ، لانهم افترضوا على انفسهم

طاعتهم .

والذي يلفت النظر في امر عبدالله بن سبا ، انه كان من اصل يهودي ثم اسلم ، فهل كان اسلامه حقيقياً ام مزيفاً ؟؟ لأن المسلم الحقيقي لا يمزق المسلمين ، ولا يعمل لاختلافهم بعضهم على بعض ، واذا كان الرجل قد اسلم لغاية في النفس فهل ليس في ذلك ما يدل على رغبته في اضعاف المسلمين وتمزيقهم بخلق الدسائس بينهم ، واثارة الفتن بين زعمائهم ، بحيث يكون ذلك عاملاً من عوامل انهيار الاسلام وتمزقه ... ؟؟

نشوء الاسماعيلية الباطنية

تسلسل الائمة

يختلف المسلمون الشيعة اختلافاً عظيماً في تسلسل الائمة، واهم فرقهم الامامية وهم الذين يقولون: إن محمداً نص على خلافة علي بن ابي طالب بعده، دون ابي بكر وعمر بن الخطاب ... وهم ينقسمون الى فرق متعددة لا تتفق على اشخاص الائمة.

ومن اشهرهم الاثنا عشرية ... سموا كذلك لانهم يسلسلون ائمتهم الى اثني عشر اماماً، ١ – علي بن ابي طالب، ٢ – الحسن، ٣ – الحسين، ٤ – علي زين العابدين، ٥ – زيد، ٥ مكرر – محمد الباقر، ٦ – جعفر الصادق، ٧ – اسماعيل، ٧ مكرر – موسى الكاظم، ٨ – علي الرضا، ٩ – محمد الجواد، ١٠ – علي الهادي، ١١ – حسن العسكري، ١٢ – محمد المهدي العسكري.

ومن فرقهم الاسماعيلية وهم الذين يقفون بائمتهم عند اسماعيل بن جعفر الصادق ، وذلك انه لما توفي ابو محمد الحسن العسكري بن علي الهادي بن محمد الجواد بن علي الرضا بن موسى الكاظم بن جعفر الصادق ، بن محمد الباقر ، بن علي زين العابدين ، بن الحسين ، بن علي بن ابي طالب ، وهو الحادي عشر من ائمة الشيعة الامامية الاثني عشرية ، وذلك في سنة ٢٦٠ هجرية ، بسر من رأى — سامرا — ودفن بها ، الى جانب ابيه علي الهادي ، اختلفت الشيعة بعده اختلافاً عظيماً ، وجمهورهم على ان الامام بعده ابنه محمد العسكري وهو الثاني عشر من ائمتهم ، قالوا : انه دخل سرداباً في دار ابيه بسامرا ، وامه تنظر اليه فلم يخرج اليها ، وسيظهر فيملأ الدنيا عدلاً ، كما ملئت جوراً ، ويسمونه المنتظر والقائم والمهدي .

الاسماعيلية

وذهب قسم من الشيعة فوجهوا وجههم شطر فرع آخر من فروع جعفر الصادق ، فقد كان له سبعة من الولد ، منهم عبدالله الافطح ، ومحمد وموسى واسماعيل ، فقال قوم : ان الامامة بعد جعفر لابنه عبدالله ، وقال آخرون بالامامة لابنه محمد ، وقال غيرهم ومنهم الاثنا عشرية : إن الامامة من بعده لابنه موسى ، واجتمعوا عليه وساقوا الامامة في اولاده ، ومنهم من ذهب الى ان الامام بعد جعفر هو اسماعيل ، نسبة الى اسماعيل بن جعفر الصادق

وهم امامية يتفقون مع الامامة الاثني عشرية في المبدأ العام للتشيع ، وهو انه لا بد للناس من امام معصوم ، يبلغهم الشريعة عن رسول الله ، وان الشريعة لا تؤخذ بالرأي ، ويتفقون مع الاثني عشرية على امامة الستة من علي بن ابي طالب الى جعفر الصادق ، ومنه يبتديء الاختلاف ، فالاثنا عشرية ذهبوا الى موسى الكاظم ، والاسماعيلية الى اسماعيل .

وفي دائرة المعارف الاسلامية : « ان الاسماعيلية فرقة من الشيعة سميت بهذا الاسم لانها وقفت بسلسلة الامامة عند اسماعيل ، الابن الاكبر لجعفر الصادق الامام السادس وقد جعلوا الامامة بعد جعفر لابنه اسماعيل ، وكان جعفر قد عهد لابنه اسماعيل بالامامة من بعده ، ولكنه عاد فعهد لابنه الثاني موسى ، فرفض الاسماعيلية نزع الامامة عن اسماعيل ، لانهم يرون ان الامام معصوم ، وان دعوى والده بأنه رآه يشرب الخمرة ، امر لا يشكل جرماً لأن الخمر لا تفسد عصمته ، وانه لا يجوز لله ان يفكر بشيء ثم ينسخه ، على نقيض ما قرر جعفر ، وتوفي اسماعيل في المدينة عام ١٤٣ هجرية — ٧٦٠ — ٧٦١ — أي قبل وفاة ابيه بخمسة اعوام ، ودفن في مقبرة بقيع الفرقد .

وقد اراد جعفر ان يؤكد وفاة ابنه بشهود كثيرين .. ولكن اتباع اسماعيل لم يسلموا بموته ، وزعموا انه كان حياً بعد وفاة ابيه بخمس سنوات ، وانه رئي في سوق البصرة حيث وضع يده على مقعد فأبرأه .

وقد ترك ابناء اسماعيل المدينة لما لحقهم من الاضطهادات التي حاقت بالعلويين ، فذهب محمد وهو الابن الاكبر الى اقليم دماوند بالقرب من الري ... واختفى هناك .... واختبأ ابناؤه في خراسان ، ثم ذهبوا الى قندهار ومنها الى الهند .

وذهب اخوه علي الى الشام وبلاد المغرب ، وكان ابناء اسماعيل يبعثون وهم في البلاد التي اختبأوا فيها بالدعاة الى العالم الاسلامي لدعوة الناس الى مذهب « الباطنية » الذي ينهض على تأويل القرآن ، ومن اشهر دعاتهم ميمون الملقب بالقداح ، الذي اصبح ولده عبدالله رأس فرقة «القرامطة» ، واستعان عبدالله برجل من اغنياء الفرس يعرف بمحمد بن الحسين ويلقب بريدان ، وكان محمد هذا يزعم انه وجد في النجوم انتقال دولة الاسلام الى دولة الفرس ، فحاول نشر دعوة عبدالله السياسية والدينية في في وقت واحد بين الفرس ...

الامام المستور

ولما كان الامام عند الاسماعيلية حجة الله على خلقه ، وانه لابد من وجوده ليؤدي ما نيط به من تبليغ الشريعة واحكامها ، ورأوا انه لم يقم احد من ولد اسماعيل بالظهور للناس ، قالوا :

« ان الامام قد يكون مستوراً مكتوماً عن الناس خبره ، وحينئذ لابد له من نائب يكون هو الحجة ،

وهو القائم بالدعوة والتبليغ عنه » وساقوا الامامة الى محمد بن اسماعيل ثم الى اولاده من بعده ، وظهرت الدعوة الى هذا المذهب عقب وفاة الحسن العسكري والد محمد المهدي خاتمة ائمة الشيعة الاثني عشرية .

وكان لهؤلاء النفر تعاليم دينية خاصة يسترون كثيراً منها على الناس ، ومن اجل ذلك قيل لهم «الباطنية» ، وهم يقدمون هذه التعاليم برفق وتأن لمن يدعونه حتى يطمئنوا اليه ويطمئن اليهم ، ومن الحق ان نذكر هنا ، ان بعض المذاهب الدينية التي انبثقت عن المذهب الشيعي قد تطورت مع الزمن تطوراً خطيراً اصبحت معه فرقاً جديدة ليس لها من التشيع الا الاسم دون الروح ، وان الكثير من مبادئها واقوالها يخالف مذهب التشيع كل المخالفة ....

النحلة الديصانية

واكثر المؤرخين يربطون الاسماعيلية الباطنية ، بالنحلة الديصانية ، وهي نحلة تنسب الى رجل يعرف بابن ديصان ويقولون ان بعض دعاة الاسماعيلية كانوا من اتباع النحلة الديصانية ، وهي نحلة ظهرت قبل نحلة « ماني » كما يظهر (١) وكانت تقول بوجود اصلين قديمين ، النور والظلمة ،

---

(١) ظهر ماني في القرن الثالث الميلادي ، ولما قام بمذهبه الديني الجديد كان غرضه من هذا المذهب الذي راح يروجه

بين الناس التوفيق بين المجوسية والفارسية « زارد شتية » والمسيحية ، فاغضب اصحاب الديانتين بعمله هذا ، ويظهر لنا ايضاً انه جمع في عقيدته كثيراً من مبادىء ومعتقدات البابلونيين القدماء ، والبوذيين الهنود .. والمانية اي مذهب « ماني » اقرب الى المسيحية منها الى المجوسية الفارسية وقد حرم ماني الكذب على اتباعه ، وكتب الى شاهبور كسرى الفرس في عهده كتاباً يبسط له فيه مبادئه الجديدة ، ويقال : انه وفق الى اقناعه بالايمان بها ... وقتل ماني بأمر احد خلفاء شاهبور بعد ذلك ...

ويقول « برون » في كتابه « تاريخ الفرس الادبي » ، ان المعلومات الموجودة عن ماني في المصادر العربية كالفهرست ، والبيروني ، وابن واضح اليعقوبي ، والشهرستاني ، هي اوثق مما كتبه مؤلفو الفرنجة عنه ... وعلى ذكر المجوسية الفارسية ، ننقل ما كتبه الاستاذ ارنولد عنها في كتابه « التعاليم الاسلامية او الدعوة الاسلامية » ، قال : ان المجوسية الفارسية (زارداشتية) كانت شديدة التعصب ، حتى اغضبت الناس عليها واغضبتهم في الوقت نفسه على الحكومة التي تناصرها ، فلما حصل الفتح العربي كان بمثابة تحرير رائع للامة الفارسية من استبداد رجال الدين والحكومة الفارسية ...

وكانت انتصارات الاسلام ، وسهولة عقائده من الاسباب التي حملت الاكثرية من سكان فارس على الايمان به بملء ارادتهم ، وقد حصل بعد معركة القادسية ان اسلم اربعة آلاف من جنود الديلم ، وعاونوا العرب في معركة « جلولا » ثم سكنوا في الكوفة بعد ذلك مع المسلمين ، وكان مثل هذا العمل شائعاً كثيراً .

وقد ثبت اليوم ان الاسلام لم يقض على عبدة الديانة

والذين يريدون تأكيد الصلة بين الديصانية والباطنية وهي فرقة انبثقت عن الاسماعيلية ، يقولون : « ان عبدالله بن ميمون القداح كان هو وابوه ميمون ديصانيين ، وادعى عبدالله النبوة مدة طويلة ، وكان يذكر ان الارض تطوى له فيذهب الى ابن احب في اقرب مدة ، وكان يخبر بالاحداث الكائنة في البلدان الشاسعة ، وسبب ذلك انه كان له مرتبون في مواضع ، يرغبهم ويحسن اليهم ، يعاونونه في اعماله ... ومعهم طيور يطلقونها من المواضع المتفرقة الى الموضع الذي فيه عبدالله ، ومعها الاخبار بما وقع عندهم ، او ما حدث قريباً منهم ، فيخبر من حضره بما كان ، فينطلي ذلك عليهم ... »

ثم صار الى البصرة ، فنزل على قوم من اولاد عقيل بن ابي طالب ، فعرف امره ، فهرب الى سلمية ، واشترى فيها ضياعاً ، وبث الدعاة الى سواد الكوفة ، فأجابه من هذا الموضع رجل يعرف بحمدان بن الاشعث ويلقب بقرمط لقصر كان في متنه وساقه (١) ويزعم اصحاب هذا

الزاردشتية ولم يجبرهم على اعتناق الاسلام قسراً ، لاننا نرى كثيراً منهم يعيش في البلاد الخاضعة الى الحكم الاسلامي في ايام الامويين والعباسيين .. وكان مهيار الديلمي الشاعر من عبدة النار ، واعتنق الاسلام بواسطة الشريف الرضي سنة ١٠٠٣ او ١٠٠٦ على الارجح ....

(١) الفهرست .

القول ان عبيدالله المهدي رأس الدعوة الفاطمية العبيدية من نسل هذا الرجل ، وان عبيد الله هو سعيد بن الحسين بن عبدالله بن ميمون القداح ، وانه تسمى بعبيدالله لما ورد مصر .

ومهما يكن من صحة هذا الكلام او بهتانه ، فان مثل هذه الاقاويل قد تكون من قبيل الدعاية التي اجراها بنو العباس نكاية بالفاطميين ، ولكن المؤكد ان النحلة الاسماعيلية كانت سياسية يقصد منها الوصول الى هدم دولة بني العباس ، إلا انها شيبت بشيء من التعاليم السرية لتكون مقدمة للدعوة واساساً لها حتى لا يفجأ المدعو بالغرض السياسي لاول وهلة ، والتعاليم السرية اقرب الى عقول السذج ، وادعى الى تأييدهم واكتساب عطفهم .

السياسة الفارسية والدعوة

ترى هل كانت هذه الدعوة حركة فارسية مجوسية يقصد منها القضاء على النفوذ العربي ، وخلق الاسلام خلقاً جديداً ، بحيث يساوق التقاليد الفارسية المجوسية القديمة ... ؟

هذه نظرية جديدة نقدمها ، ليصار الى بحثها على ضوء الدراسات الجديدة ، والحركات الهدامة التي قامت في الاسلام والتي نشأت في اكثر الاحيان في البلاد الفارسية او قام بها قوم من الفرس ...

ذلك ان بعض العقائد الدينية الحاضرة التي انبثقت عن الاسلام ليست في الواقع الا عقائد اسلامية صار مزجها ببعض التقاليد الفارسية ، من الايمان بالامام المعصوم والحكم الوراثي ، على نحو ما كان يقوله الفرس في اكاسرتهم قبل الاسلام ، والدعوة الاسماعيلية ليست الا مذهباً شيعياً فارسياً فيه الكثير من الاغراق والتطرف ...

ويؤيد ذلك ان الفرس لم ينسوا قوميتهم في يوم من الايام ، وقد راحوا يحاربون اللغة العربية محاربة عنيفة ، حتى تمكنوا من القضاء عليها في مواطنهم ، بعد ان كادت تحل مكان لغتهم الاصلية ... ثم راحوا يعملون للاستقلال السياسي الاداري عن الدولة العربية حتى وفقوا الى ذلك وكان هذا الاستقلال مقدمة للاستقلال التام فيما بعد .

ولسنا ننكر الى ذلك ان تأثير العرب المسلمين على الفرس كان عظيما جداً ، فقد قال نولدكه المستشرق المشهور :

« ان الفلسفة اليونانية لم تؤثر على الفرس الا تأثيراً سطحياً ... بينما اقتلع العرب كل شيء فارسي ووضعوا مكانه كل ما هو عربي ... وهذا القول يصدق في الدين كما يصدق في اللغة والمذاهب الاجتماعية ... »

ولقد وقع الاصطدام العسكري بين العرب والفرس اول ما وقع في معركة ذي قار وذلك قبل الاسلام في عهد كسرى ابرويز (٦٠٥ – ٦١٠ ميلادية) ...

وفي هذه المعركة التي حصلت بين بعض القبائل

العربية والقوات الفارسية فشل الفرس فشلاً مريعا ... ثم حصل الاصطدام الثاني الفاصل العنيف في معركة القادسية (٦٣٦ – ميلادية) وانتهى بمقتل يزدجرد الثالث آخر اكاسرة الفرس (٦٥١–٦٥٢) واستيلاء العرب على الامبراطورية الفارسية ... وفقدان الفرس سلطانهم السياسي والديني والثقافي ...

التحرر الفارسي

ومن المفروض ان امة كالامة الفارسية ، وهي عريقة في استقلالها وحضارتها ، لا يمكن ان ترضى بهذه الحالة مدة طويلة ، ولكن العرب كانوا من القوة والسلطان بحيث كان يستحيل على الفرس مقاومتهم واجلائهم عن بلادهم ، فراحوا يتكلفون سياسة جديدة ، وهي قبول الاسلام ، ومقاومة السلطان العربي في الوقت نفسه بتأييد كل ثورة ، والدعاية لكل مذهب ، يساعدهم للوصول الى الغايات التي كانوا يطلبونها ، فأيدوا العباسيين في ثورتهم على الدولة الاموية العربية ، وسيطروا في عهد العباسيين على السياسة العربية اذ كان وزراء هذه الدولة في اكثر الاحايين منهم ، ولما حدث الخلاف بين الامين والمأمون ، وكان انصار الامين من العرب ، ايدوا المأمون ، وانصاره باكثريتهم كانوا من الفرس حتى اجلسوه على عرش الخلافة مكان اخيه ...

وقد اتينا في الفصل السابق على الحركة البابكية

الفارسية ، وكيف انها سياسية اجتماعية في وقت واحد .

واما بدء انسلاخ الفرس عن النفوذ العربي ، فيحاول بعض المؤرخين ان يجعل تاريخه منذ اقتحام المغول لبغداد سنة ١٢٥٨ ميلادية ، ولكن الواقع غير ذلك ، لان الانسلاخ وقع قبل هذا العهد ، وبدأ فعلاً في عهد آل طاهر خفيفاً جداً حوالي سنة ٨٢٠ ، ثم اخذ يقوى في عهد الدولة الصفرية (٨٦٧) والسامانية (٨٧٤) ثم البويهية (٩٣٢) واخيراً الغزنوية ثم السلاجقة ...

ومن المؤكد اليوم ان من اسباب سقوط الدولة الاموية ، عداوة الشيعة من الفرس لهذه الدولة ، ونقمة الموالي عليها لعدم مساواتهم بالمسلمين العرب ، والموالي كانوا من الفرس وغير الفرس ...

وليس يشك المؤرخون في الوقت نفسه بان السيطرة العربية انتهت بزوال الامويين ، وان قيام العباسيين وفوزهم ، كان ايذاناً بفوز الفرس السياسي ...

وشيء آخر ايضاً يدل على نقمة العناصر الاسلامية من فرس وغيرهم من الاعاجم على العرب ، ظهور « الشعوبية » في عهد العباسيين بصورة واضحة قوية بارزة ، لم يكن لنا بها عهد في عهد الامويين ...

والشعوبيون قوم من الفرس وغير الفرس كانوا يقولون بتفوق الاعاجم على العرب ، ويؤلفون الكتب لاثبات اقوالهم هذه وتأييدها ...

وبديهي ان كل هذه العوامل تحمل المؤرخ المعاصر

على الظن بأن هذه الحركات الهدامة التي كانت تظهر في الاسلام بين وقت وآخر ... والتي كان من مصلحة الاعاجم اثارتها وتغذيتها ، ليست بعيدة عن النشاط الفارسي الذي كان يحاول اعادة امجاده واستقلاله ، وهذا لن يكون الا باضعاف العرب اصحاب السلطان السياسي والديني ..

الاغراض الدينية

هذا فيما يتعلق بالاغراض السياسية القومية التي كان يسعى الفرس لتحقيقها ، واما ما يتعلق بالدين فأن الفرس وقد اعتنقوا الاسلام وآمنوا بالله ورسوله ، فقد اصبحت عودتهم الى المجوسية شيئاً صعباً ، لأن المجوسية لم تكن ديناً يصح اعتناقه ، ويسهل تأييده ، والاسلام في رأي الشعب الفارسي كان افضل وانبل ما في ذلك بشك ، ولذلك رأينا جماعة من الفرس ، وقد ادركوا عجزهم امام قوة الاسلام ، يتكلفون سبيلا جديداً للوصول الى اغراضهم من تعديل الدين الاسلامي ، بحيث يوافق مزاجهم وتقاليدهم ... ولما كان النظام الشورى الذي يقوم عليه الاسلام لا يوافق عقليتهم ولا يساير تقاليدهم ، فقد راحوا يتشيعون لآل محمد ، ويرفعونهم الى ما رفعوا اليه اكاسرتهم في سالفات الايام ، يقدسونهم ، ويقولون ان علمهم الهي وان الامام منهم معصوم وانه مرسل من عند الله ، وان الامامة وراثية لا انتخابية ، وغير ذلك من الاراء التي كانت جديدة في الاسلام ...

وقد نشطت هذه الحركات الثورية كلها في القرن الثالث والرابع (الهجري) وما بعدهما ، لما ظهر الضعف في الامبراطورية العباسية ، واخذ القواد الترك ، بعد انهيار النفوذ الفارسي في بغداد ، يسيطرون على الخليفة ، ويحكمون الدولة كما يشاؤون ويريدون ... ومع ان الخلافة في الاعوام الاخيرة ، التي سبقت استيلاء المغول على بغداد كانت من الضعف والانحلال بالقدر الارفع ، فان بغداد العاصمة كانت لا تزال منارة الاسلام ، ومركز العلم والثقافة والحضارة في الشرق الاوسط ، كما ان اللغة العربية احتفظت بمكانتها كلغة السياسة والادب والثقافة والشعر بحيث نستطيع القول ان غزو المغول بغداد واستيلائهم عليها (١٢٥٨ ميلادية) كان فاجعة سياسية ادبية وثقافية ما في ذلك شك ، لان هذا الغزو قضى على الحضارة القائمة ، واباد الثقافات والمعارف التي كانت ناشطة برغم ضعف الدولة وانحلال سياستها وسلطانها ...

وليس من شك عندنا ، اليوم في ان السبب الذي اودي ببغداد ، والسيادة العربية في الشرق الاوسط ، انما يرجع في اسبابه الاولى الى نقمة العناصر الاعجمية على العرب وسعيهم لاضعاف السلطان العربي بمختلف الاسباب والسبل ... ولسنا نتكر الى ذلك حظ العرب من الهدم فان مسؤوليتهم امر لا شك فيه ، لانه لولا تمزقهم واختلافهم وقيام الضعفاء من الخلفاء على عرش الخلافة ، وفقدان الامة العربية روح التضحية والطاعة ، وانعدام

التجانس بين شعوب الامبراطورية ، وغير ذلك من الاسباب التي لا سبيل الى بسطها في هذا الفصل ، كل هذه كانت من العامل التي ساعدت على الانحلال ، فالانهيار ...

تمركز الدعوة

والذي عليه الاجماع اليوم ان الدعوة الاسماعيلية الفاطمية تمركزت في نقطتين في اواخر القرن الثالث الهجري ، الاولى في سلمية بالقرب من حمص – من اعمال سورية – وكانت هذه القرية النائية موئل الدعوة الفاطمية ومجمع اسرارها ، كما كانت قرية الحميمة منذ نيف ومائة سنة موئل الدعوة العباسية ... والثانية في جنوبي فارس ، ثم انتقلت الى العراق وكان اول بذور الدعوة ، ظهور القرامطة وتعدد ثوراتهم ...

دهاء الاسماعيلية

وكذلك نشأت الاسماعيلية كقوة سياسية في اواخر القرن الثالث الهجري ، وكانت الدولة العباسية في هذه الفترة قد اخذت تضطرب في كثير من الفوضى والانحلال ، وكان قواد الترك في بغداد وسامرا قد اخذوا يسيطرون على امور الدولة ، فلا يصل الخليفة الى عرشه الا برضاهم ، ولا يستقيم امره الا اذا وافق هواهم ، فان ارضاهم واغناهم وآمنهم ظل في مركزه ، وان نقموا عليه

واختلفوا معه ، عزلوه وعذبوه وقتلوه ...

ومن المؤكد ان الاسماعيلية فطنوا لحالة العباسيين السيئة ، وادركوا بثاقب نظرهم ان النقمة اصبحت عامة بين جميع الناس في انحاء الامبراطورية ، وان السبيل الوحيد لاثارة العواطف الكامنة ، والثورات المستترة ، وتأسيس نظام جديد ، انما يكون في بث دعوة اشتراكية مبهمة بين الامم المختلفة الممثلة في عناصر الامبراطورية العباسية ...

وكان دعاة الاسماعيلية الى ذلك من اشتات الناس ومختلف الاجناس ، كان بينهم العربي والعجمي والكردي والتركي والديلمي وغيرهم من مسلمي الامبراطورية ، مما يدل على ان الدعوة لم تكن قومية وانما كانت تضم اليها مختلف الاجناس والاشخاص ، الذين كانوا لا يختلفون في جنسياتهم فيما بينهم فحسب ، وانما كانوا يختلفون في عقائدهم ايضاً ، فقد كان بينهم المؤمن والملحد والزنديق والفوضوي والشيوعي ، وكل ناقم على النظام الحاضر القائم ، بحيث تساوق الاسماعيلية شيوعية اليوم من حيث اختلاف جنسيات الاشخاص الذين ينتسبون اليها ...

مبادئ الاسماعيلية

ويجمع المؤرخون على ان للفرقة الاسماعيلية مبدأين سياسيين :

مبدأ ديني ، وآخر سياسي ، ويكاد يكون المبدأ

السياسي نتيجة طبيعية للمبدأ الديني ، الذي يدور حول الامام ، وضرورة استرجاع الحكم له من ايدي الغاصبين خلفاء بني العباس ...

ويقوم المبدأ الديني على عودة الامام المنتظر الذي سيملأ الارض عدلاً ، بعد ما ملئت جوراً ...

والامامية على العموم اختلفوا فيمن هو الامام المنتظر ، ففرقة تنتظر ظهور جعفر الصادق ، واخرى تنتظر محمد بن عبدالله بن الحسن بن الحسين بن علي بن ابي طالب ، وثالثة تنتظر محمد بن الحنفية ، ورابعة تنتظر محمد بن اسماعيل ، وخامسة تنتظر اسماعيل بن جعفر الصادق .

ويقول ابن الجوزي في كتابه : « نقد العلم والعلماء » في صدد من تنتظره الفرقة الاسماعيلية من هؤلاء الائمة :

« ان الفرقة الاسماعيلية الباطنية لها ثمانية اسماء ، الاولى الباطنية ، والثانية الاسماعيلية ، والثالثة السبعية ، والرابعة البابكية ، والخامسة المحمرة ، والسادسة القرامطة ، والسابعة الخرمية ، والثامنة التعليمية » .

ويقول في البحث عن الاسماعيلية انهم « نسبوا الى زعيم لهم يقال له محمد بن اسماعيل بن جعفر ، ويزعمون ان دور الامامة انتهى اليه لانه سابع ، واحتجوا بأن السموات سبع ، والارضين سبع ، والايام سبعة فدل على دور الائمة يتم بسبعة » .

ويقول في البحث عن السبعية « لقبوا بذلك لأمرين

احدهما ، اعتقادهم ان دور الامامة سبعة على ما بينا ، وان الانتهاء الى السابع هو آخر الادوار ، وهو المراد بالقيامة وان تعاقب الادوار لا آخر له ... والثاني لقولهم ان تدبير العالم السفلي منوط بالكواكب السبعة » .

ومن هذا الكلام يتضح لنا ان السبعية هي الاسماعيلية ، ويؤيد هذا القول ما جاء به « البغدادي » اذ يقول : « ان الاسماعيلية ساقوا الامامة الى جعفر الصادق وزعموا ان الامام بعده اسماعيل ، وافترق هؤلاء فرقتين : فرقة منتظرة لاسماعيل بن جعفر – مع اجماع اصحاب التواريخ على موت اسماعيل في حياة ابيه – وفرقة منهم قالت : كان الامام بعد جعفر سبطه محمد بن اسماعيل بن جعفر وقالوا ، ان جعفر نصب ابنه اسماعيل للامامة بعده ، فلما مات اسماعيل في حياة ابيه علمنا انه انما نصب اسماعيل للدلالة على امامة ابنه محمد بن اسماعيل ، والى هذا القول مالت الاسماعيلية من الباطنية . » (١)

ويزيدنا تأكيداً على أن الاسماعيلية هم السبعية ما جاء به الشهرستاني اذ يقول :

« ان الاسماعيلية قالوا ، ان الامام بعد جعفر هو اسماعيل الا انهم اختلفوا في موته في حال حياة ابيه ، فمنهم من قال ، لم يمت الا انه اظهر موته تقية من خلفاء بني العباس . ومنهم من قال : الموت صحيح والنص لا يرجع

---

(١) مختصر كتاب الفرق بين الفرق ، للبغدادي

قهقرى والفائدة في النص بقاء الامامة في اولاد المنصوص عليه دون غيره ، فالامام بعد اسماعيل هو ابن محمد بن اسماعيل » (١) . ومن هذا نستنتج ان الفرقة الاسماعيلية هي الفرقة السبعية وهي تنتظر عودة الامام محمد بن اسماعيل بن جعفر الصادق بعدما اعترف اكثرهم بوفاة اسماعيل ، خصوصاً وان معتقدات السبعية والاسماعيلية سواء ، بحيث يستطاع القول ان الاسماعيلية هي السبعية.

معتقداتهم

ويقول ابن الجوزي : ان عقائد الباطنية تباين الاسلام فحصول قولهم تعطيل الصانع وابطال النبوة والعبادات وانكار البعث ، ولكنهم لا يظهرون هذا في اول امرهم بل يزعمون ان الله حق ، وان محمداً رسول الله ، والدين صحيح ، ولكنهم يقولون بذلك سراً .»

ويقول ابن خلدون : « ان النصوص التي ينقلونها ويؤولونها على مقتضى مذهبهم لا يعرفها جهابذة السنة ولا نقلة الشريعة ، بل اكثرها موضوع او مطعون في طريقه او بعيد عن تأويلاتهم .»

ويقول الاستاذ برون في كتابه « تاريخ فارس الادبي»: « ومن هذا نرى ان الاسماعيلية كانت فرقة سرية ، لم يكن

---

(١) الشهرستاني، الملل والنحل على هامش الفصل في الملل والنحل لابن حزم ج ٢ ص ٥-١٠

واقفاً على اغراضها وطرقها الا زعماؤها ، وهؤلاء الزعماء وقفوا على اسرارها بعد ان قطعوا المراحل المطلوبة ، اما سائر اعضائها وهم الاكثرية فلم يكونوا يعرفون شيئاً من امر هذه الجمعية الا القليل ، الذي كان يطلعهم عليه دعاة الجمعية الذين يختارون الاعضاء لتسنم الرتب السبعة ، ولهذا كان من الصعب الالمام بكل تعاليمهم ...»

ويقول البغدادي بشأن الرتب السبعه : « كان عدد الرتب في اول الامر سبعة ثم اصبح تسعة ، وكان لكل درجة اسم يلائم العلم الذي يتلقاه المدعو في تلك الدرجة .»

وكانت قضية التشكيك تدور حول تعاليم الاسلام كسؤالهم مثلا : « ما العدو بين الصفا والمروة ؟ وتنتهي بهدم الاسلام ، والتحلل من قيوده ، وأولوا كل ما فيه فقالوا : ان الوحي ليس إلا صفاء النفس ، وان الشعائر الدينية ليست إلا للعامة ، اما الخاصة فلا يلزمهم العمل بها . وان الانبياء هم سواس العامة ، اما الخاصة فانبياؤهم الفلاسفة (١) .

وكانوا يؤولون القرآن على اهوائهم ، فيزعمون ان الملائكة هم دعاتهم ، والشياطين مخالفوهم ، والصلاة موالاة امامهم ، والحج زيارته ، والصوم الامساك عن إفشاء سره وان من عرف الله سقطت عنه العبادة ، يتأولون في ذلك

---

(١) راجع تعاليم الاسماعيلية في الجزء الاول من الخطط للمقريزي

قوله «واعبد ربك حتى يأتيك اليقين» ، يريدون باتيان اليقين معرفة التأويل (١) .

وكانوا اذا قبلوا احداً في جمعيتهم اختبروه اولا وعلموه ثم اطلعوه على بعض اسرارهم ، حتى اذا بلغ المدعو درجة معلومة سمحوا له ان يقسم ، والقسم كما ذكر البغدادي ، « اما ايمانهم فان داعيهم يقول : جعلت على نفسك عهد الله وميثاقه وذمته وذمة رسوله ، وما اخذ الله تعالى من النبيين من عهد وميثاق ، ان تستر ما تسمعه مني ، وما تعلمه من امري ، ومن امر الامام الذي هو صاحب زمانك ، وامر اشياعه واتباعه في هذا البلد وفي سائر البلدان ، وامر المطيعين له من الذكور والاناث ، فلا تظهر من ذلك قليلاً ولا كثيراً ، ولا تظهر شيئاً يدل عليه في كتابة او اشارة ، الا ما اذن لك فيه الامام صاحب الزمان ، او اذن لك في اظهاره المأذون له في دعوته ، فتعمل في ذلك حينئذ بمقدار ما يؤذن لك .. الخ » فمن هذا يتضح ما كان لمذهب هذه الفرقة من التستر والكتمان (٢) .

امام الزمان

وخلاصة القول في الاسماعيلية الباطنية انها جمعية سرية يترأسها زعيم يعرف بالامام او صاحب الزمان ،

---

(١) كتاب الفرق الاسلامية للشيبيشي ٥٩-٦٠

(٢) البغدادي الفرق بين الفرق ص ٢٨٢

وله السلطة المطلقة على اعضاء الجمعية ، فله ان يدفعهم للموت ، وله ان يجردهم مما يملكون ، وكلمته عندهم لا ترد فهي حكم من احكام الشريعة ، لان الامام عندهم معصوم عن الخطأ ، وكلمته كلمة الله ، وخدمة الله تكون باقرار ارادته ، والعمل بامره ، والاخلاص له ، فمن عرف امام الزمان ، واقسم باسمه ، واعتمد عليه في كل شيء ، وعمل باوامره فقد عرف الله حق المعرفة (١) .

وامام الزمان هذا كان عندهم كبير الدعوة ، وزعيم الجمعية ومركزه عظيم يفوق مركز الانبياء ، وتأثير الفلسفة الافلاطونية الحديثة ظاهر في عقائدهم ، وهم لا يؤمنون بالشرائع المشتركة ، اذ هي في نظرهم شرائع لا تتعدى زمانها ، اما امام الزمان وتأويلاته الشرعية فليس لها حدود ولا زمان ...

وكانوا الى هذا يقسمون الناس الى فئتين ، فئة مبصرة وفئة عمياء — العميان والحمير — والطبقات المبصرة هي التي فتح الله بصائرها ، فادركت الحقيقة ، فهي لهذا في غنى عن الشرائع وشعائرها الخارجية ، وهذا مما اكده كل مؤرخي الاسلام ، حين قالوا انهم يكفرون بالاديان ولا يؤمنون بها ...

وقد ذكر ابو منصور البغدادي صاحب كتاب الفرق بين الفرق ، ان القيرواني وهو رجل منهم ومن القرامطة

---

(١) كتاب M. de Gœje عن القرامطه

كتب في رسالته التي وضعها لسليمان بن الحسن القرمطي ما حرفه :

« اني اوصيك بتشكيك الناس في القرآن والتوراة والزبور والانجيل ، وبدعوتهم الى ابطال المعاد والنشور من القبور ، وابطال الملائكة في السماء ، وابطال الجن في الارض » (١)

وجاء في رسالة لهم محفوظة الى اليوم خطأً ما معناه (٢) « ان القول بالبعث مهزأة ، لان المراد من قولنا (الحيوة الخالدة) و (خلود النفس) هو رجوع النفس الى مصدرها الاعلى ...»

وعلى هذا الاسلوب اولوا العقائد ومختلف الوان الشرائع ، وقالوا : « ان المؤمن الحقيقي هو من يؤول الوحيّ الالهي على طريقتهم ، واما من يتبع الشرائع المنزلة واحكامها على ظواهرها ، فليس الا كافراً ».

ومن هذا نرى ان المذهب الجديد الذي اراد الاسماعيليون نشره ليس إلا نتيجة منطقية لتعليمهم الاساسي عن الدين ، وما الدين الحقيقي في نظرهم الا ان يتوصل الانسان بالتمرين المستمر والرقي من درجة الى درجة لمعرفة منازل الكون التي قطعتها المسكونة بعد ان انفصلت عن الله (٣)

---

(١) الفرق ٢٨٠

(٢) كتاب De Gœje

(٣) مقال ارنولد في الموسوعة الاسلامية تحت كلمة اسلام

هـذه هي اهم مبادىء الاسماعيلية في الدين ، واما مبادؤهم في السياسة فكانت كما ذكرنا ، تتطور وفاقاً لمطالب الزمن ومقتضيات الاحوال ، ولم تكن لتختلف كثيراً عن مطالب الشيعة عامة ، اي انها كانت ترمي الى نزع السلطة من خلفاء بني العباس ونقلها الى خلفاء علي وابنائه .

ولقد كادت هذه الفرقة تبلغ اربها من القضاء على الدولة العباسية ، لولا ظهور الترك ، الذين اصبحوا في القرن التاسع اصحاب الامر والنهي في بغداد ، وصار اليهم امر الدفاع عن الدولة ونظمها الدينية والدنيوية ، مما اضطر الاسماعيليين الى الانسحاب من كثير من الميادين التي كانوا ناشطين فيها والالتجاء الى الجبال والبلاد البعيدة .

اقوال كلارادي فو

ويقول المستشرق المعروف (كلارادي فو) في كتابه « مفكرو الاسلام » : ان الاختلاف بين الاسماعيلية والسنة انما يقوم على استساغة الاولى للتعاليم الفلسفية القديمة ، ومحاولتها الجمع بين الدين والفلسفة في تعاليمها والاستفادة من الاثنين معاً لاغراضها السياسية .

وقد اشتهرت فرقة من الاسماعيلية — هي الباطنية — في التاريخ الاوروبي بصلاتها مع الصليبيين ، ومحاربتها لهم احياناً ، واتفاقها معهم حيناً آخر ...

والاسماعيلية فرقة من الشيعة تعتبر المهدي اسماعيل بن

الامام السادس جعفر الصادق ، بمعنى انها لا تعترف بغير سبعة ائمة ابتداء من علي ، بخلاف الاثني عشرية الذين يعترفون باثني عشر اماماً .

وقد انتهى عبدالله بن ميمون من وضع هذه الطريقة في اواخر القرن التاسع الميلادي ، وكان عبدالله هذا رجلاً عالماً بالفلسفة والامور الدينية ، وكان يصار الى تعليم العقيدة الاسماعيلية على تسعة مراتب بواسطة دعاة موزعين في مختلف البلاد ، وكان الاسماعيلية يؤلفون جمعية سرية منظمة تنظيما بديعاً .

الشك

وكان الدعاة اولا يلفتون نظر الطالب الى الخطأ الذي يتعرض له في تفسير القرآن تفسيراً سطحياً ، ويعلمونه ان الدين شيء عظيم ، لا يصل الى معرفة حقيقته الا افراد نعموا بعطف الله ورسوله ، ثم يتكلف الداعية احراج الطالب باسئلة صعبة عميقة ، ثم يتحدثون له عن الاسرار العظيمة الموجودة في الايات القرآنية ..

وبعد ان يقسم الطالب القسم المطلوب منه ، يحدثونه عن تطور الدين والاديان ، وكيف ان عامة الناس لا تستطيع الوصول الى الحقيقة بمفردها ، ولذلك ارسل الله الرسل رحمة لهؤلاء الذين لا يفهمون الدين ، والانبياء الذين اسسوا اديانا كاملة هم ستة : آدم ، ونوح ، وابراهيم ، وموسى ، وعيسى ، ومحمد . واما النبي السابع فهو المهدي

الذي سيأتي في المستقبل ، والذي سيكون من آل علي .

ثم يعملون على ابعاد الطالب عن القيام بالاعمال الدينية المقررة ، فيقولون له : ان الافعال الدينية المفروضة ليست إلا وسيلة لحفظ النظام بين الجماعات ، وهي ليست مفروضة على العلماء ، ثم يعلمونه شيئاً من الفلسفة ، ويتحدثون له عن ارسطو وافلاطون ، ويقولون له : ان الفلاسفة هم الانبياء الحقيقيون ، وانهم اقرب الناس الى الله بالعلم ، واقدر الناس على الاكثار من معرفة الحقيقة بين الناس ، واما من يسمونهم بالانبياء فليسوا في الواقع غير رسل الفلاسفة ، وقد راحوا يعملون على نشر النظم الدينية باساليب عادية تصلح لعامة الناس .

والظاهر ان نظرية « الشك » كانت تسيطر على النظم والتعاليم الاسماعيلية ، فالله في نظرهم ابعد من ان يفهمه العقل البشري ، وقد خلق بطريقة سرية مبدأين ازليين ، كان واحدهما قبل الآخر ، وهما العقل الازلي ، والروح الازلية ، وكان من اثر هذين المبدأين ثلاثة مباديء اخرى ، المدى ، والوقت ، والمادة ، وليس هنا مجال تفصيل هذه المباديء الفلسفية المتشابكة ، فنكتفي بما بسطناه منها .

المبادىء السياسية

وليست المباديء الاسماعيلية السياسية اقل غرابة من مبادئهم الفلسفية ، فقد راحت الاسماعيلية تسعى من الناحية السياسية الى امرين ، تحطيم الخلافة العباسية ، واعداد الجو

اللازم لظهور المهدي ، ولتحطيم السلطان العباسي كان لا بد لها من هدم بعض التعاليم السياسية التي يقوم عليها هذا السلطان ، والمقرر اليوم انه حتى اواخر القرن الثالث الهجري كانت الحركة تميل الى الاعتصام بزي ديني ، ولا تقصد بالهدم من المباديء ، الا ما ترى انه يخالف مبادئها ويتعارض مع ميولها السياسية ، ولكنها عادت فتحولت آخر الامر الى معول لهدم كل شيء ، واخذت تسير سبيلاً بعيداً عن المذاهب الشيعية المقررة المعروفة ، عاملة في الوقت نفسه على هدم جميع المعتقدات الدينية والنظم السياسية ، شيعية كانت ام غير شيعية ...

ولكن الاسماعيلية في الواقع لم يوفقوا الى هدم الخلافة العباسية ، وان كانوا قد عملوا على اضعافها بما احدثوه من الثورات في امصارها ، كثورات القرامطة ، ولكن تاريخ الاسماعيلية يقدم لنا صورة واضحة عما تستطيعه فرقة من الفرق اذا نظمت امورها ، وتوثقت روح الطاعة بين افرادها ، من التأثير في سياسة امة من الامم خصوصاً اذا تكلفت هذه الفرقة الخنجر والموت في سبيل اغراضها .

ويظهر انه لما صار تأسيس الفرقة الاسماعيلية في اواخر القرن الثالث الهجري ، ظلت هذه الفرقة ما يزيد عن خمسة وعشرين عاماً تعمل في طي الخفاء ، داعية الناس الى تأييدها اولا في فارس ، ثم في سورية ، ثم في البلاد العربية وافريقيا .

ويقول (كلارا دي فو) ان مؤسس الفرقة وابنه وحفيده، ظلوا مدة من الزمن – وفي هذه الفترة من من العمل التأسيسي – يعيشون في قرية نائية من اعمال سورية «سلمية»، ومنها كان يخرج الدعاة الى جميع الاقطار.

وقد وفق هؤلاء الدعاة الى النجاح الذي يتطلبونه، وطريقتهم السرية الهادئة المزيجة من الشك والفلسفة والدين وقوة التكيف التي كانت خاصة ملازمة لهم، ساعدتهم كثيراً على نشر دعوتهم، واجتذاب الناس الى نحلتهم، ويظهر انهم ارضوا الفرس كثيراً، لما راحوا يقولون لهم ان الله قد غضب على العرب لقتلهم الحسين بن علي، كما ان معرفتهم السرية للاخبار والحوادث في البلاد المختلفة البعيدة، بواسطة دعاة يقيمون بهذه الارض النائية، ويرسلون اخبار بلادهم الى رؤسائهم بواسطة الحمام الزاجل ادهش البسطاء من الناس، فعدوا معرفتهم هذه نوعاً من العلم بالغيب، ودليلاً بارزاً قوياً على قوتهم وصدق عقيدتهم.

ابن ديصان

ويرد بعض المؤرخين اصل الاسماعيلية الهدامة الى ميمون بن ديصان القداح، ويقولون ان هذه الدعوة صار انشائها وتنظيم مبادئها السرية لاول مرة، على يد جماعة من الثوريين الملاحدة بزعامة ابي شاكر ميمون بن ديصان

البوني المعروف بالقداح ، وهو من الدعاة الملحدين الذين تفقهوا في درس الاساطير الدينية والبحوث الكلامية والجدل الفلسفي وكان متآمراً وافر الدهاء والذكاء ، وفارسياً مجوسياً ، من سبي الاهوز ، ثم تظاهر بالاسلام والتشيع واكثر الذين قاموا بالحركات الهدامة في الاسلام كما قدمنا كان من الفرس المجوس ، وبدأ ميمون حياته مولى لجعفر بن محمد الصادق ، ثم قبض عليه مع جماعة من اصحابه وزجوا في سجن الكوفة ووالبها يومئذ عيسى بن موسى اواخر عهد المنصور نحو سنة ١٤٥ هجرية ، وفي السجن وضع ميمون واصحابه دعوتهم ، واسسوا مذهبهم المعروف بالباطنية ، ولما خرج من السجن راح يدعو لمذهبه السري وانضم اليه كثير من الغلاة ، وادعى انه من ولد محمد بن اسماعيل بن جعفر الصادق — كما يقول صاحب كتاب الفرق بين الفرق — وانتشرت دعوته في جنوبي فارس وجنوبي العراق والبحرين ، ولجأ حيناً من الزمن الى بيت المقدس ، وكان هو ودعاته المختارين يتوسلون للتأثير على العامة باعمال التنجيم والسيمياء ، وبعض التجارب الكيماوية التي كانوا يحذقونها ، (١) وحمل الدعوة بعده عبدالله ابنه ، وكان مثله ذكاء وبراعة وتبحراً في المباحث الفقهية والكلامية والنظريات الفلسفية ، فنظم الدعوة وصاغها في تسع مراتب ...

---

(١) غاية الارب للنويري

وكان ابن ديصان يكره بني العباس وينكر خلافتهم ويعمل لزوالها ، فبعث دعاته في بلاد فارس سنة ٨٤٠ ميلادية ، حيث تبعه خلق كثير ، والف كتاباً في الزندقة اسماه « الميزان » ، والف ممن تبعوه عصابة سرية نسبت نفسها الى اسماعيل فسميت الاسماعيلية .

ثم انتشر اتباعه بمرور الزمن في جزيرة العرب والشام وافريقيا ، وظلوا نحو قرنين ونصف قرن ، تنتقل تعاليمهم من مكان الى آخر ، حتى جعل منهم «الحسن بن الصباح» عام تسعين والف للميلاد عصابة سياسية تقلب الممالك ، وتسفك الدماء في سبيل اغراضها السياسية ، وتدمن تعاطي الحشيشة حتى لقبوهم بالحشاشين ، واطلقوا هذا الاسم على كل قاتل سفاك ، وظل هذا شأنهم حتى قضي عليهم عام ١٢٥٦ اي سنه ٦٥٤ هجرية بوفاة آخر خلفاء الحسن بن الصباح (١) .

ويقول ابن خلدون « وكان من هؤلاء الاسماعيلية .. القرامطة واستقرت لهم دولة بالبحرين » ، وكان من اسمائهم الباطنية ، ذلك لانهم كانوا يبطنون دعوتهم وينشرونها متكتمين في عهد المستضيء العلوي الفاطمي لابنه نزار ، وقيل انما سموا بذلك ايام الحاكم بأمر الله الذي انشأ في القاهرة في القرن الثالث الهجري مدرسة سماها دار الحكمة كان الطلاب يُعلمون فيها معنى «مكتوماً»

---

(١) انظر كتابنا « قلعة الموت » وسيصدر قريباً

لمتن القرآن ، وسواء أكان السبب هذا أم ذاك ، فالتسمية راجعة الى تكتم القوم في دعواهم وتعاليمهم ، وكان من اسمائهم ايضاً اسم الحشاشين لتعاطيهم الحشيشة واستغلالهم تأثيرها في اغراضهم وسياستهم ... وسموا كذلك بالفدائية لانهم كانوا يجعلون انفسهم ، وخاصة في عهدهم الاخير ، فداء لرئيسهم ينفذون اوامره ولو ادى ذلك الى التضحية بالنفس في سبيله ، والمصادر الشرقية تطلق عليهم غالباً اسم الاسماعيلية والملاحدة والنزاريه ، وهذه الاسماء الكثيرة هي لطائفة واحدة تعددت باختلاف الملابسات والظروف ، فهم اسماعيلية نسبة الى اسماعيل بن جعفر ، وهم فدائية لانهم يضحون بانفسهم فداء لرئيسهم وهم ملاحدة لانهم عند البعض ينكرون وجود الله ، وهم قرامطة نسبة الى قرمط .... غير ان اسم الحشاشين هو الذي عرفوا به آخر امرهم ...

عبدالله بن ميمون

العائلة العجيبة

يجمع المؤرخون على ان اول من اعلن الدعوة الاسماعيلية الباطنية ، عبدالله بن ميمون القداح ، واعلن دعوته اولا بين اكراد الجبل ، ثم انتسب لعقيل بن ابي طالب ، وقبل دعوته قوم من غلاة الروافض والحلولية .

وظهر ميمون في السلمية من اعمال الشام وجمع حوله بعض الاتباع واخذ يبث دعوته بين الناس ، فخرج من عنده دعاة ، منهم من ذهب الى مصر ، حيث عملوا على توطيد الدعوة الفاطمية فيها ، ومنهم تحدر الحشاشون ، ومنهم جماعة نزلوا العراق والجزيرة حيث ظهر القرامطة ، الذي يقول عنهم احد المستشرقين : « انهم الشيوعية الاولى في الاسلام » (١)

(١) الفكر العربي ومكانه في التاريخ — O, Leary —

وهناك من يقول ان عبدالله بن ميمون القداح ، هو ابن فقيه ملحد من جنوبي فارس يدعى ميمون بن ديصان ، وكان ابن ديصان امام جماعة من الملاحدة يزيفون الاحاديث ، وينشرون بين العامة مبادىء الانكار والهدم والاباحة ، ويظهرون في الوقت نفسه تشيعاً لآل البيت حجباً لحقيقة مقاصدهم ، وتعلم دعاتهم الشعوذة والكيمياء ، وتفرقوا في الانحاء يدعون كل طائفة بما يناسب ميولها وعقليتها ، ويظهرون للعامة في ثوب الورع والزهد.. (١)

ويقول آخرون ان ميمون بن ديصان بن سعيد امام الباطنية انتقل من اصبهان الى الاهواز ثم الى البصرة ، متظاهراً انه من آل عقيل ، ثم الى سلمية حمص بالشام ، حيث اتخذها معقلاً ، وبث دعاتـه في الافاق ، وزودهم بتعليمات الدعوة كما هو مشروح في خطط المقريزي ، وارسل اول الامر دعاته الى الكوفة ، ثم الى اليمن ، وبعدها الى المغرب ...

عبدالله بن ميمون

ولا بد من الاشارة هنا الى ان الاختلاف في تاريخ هذه الجماعة يرجع الى انها كانت سرية ، تنشر تعاليمها برفق بين النـاس ، ولا تبوح باسرارها الا لفئة خاصة من اتباعها ، واما العامة فكانوا لا يعلمون عن تعاليمها

---

(١) الفهرست لابن النديم

إلا اقلها ...

ونشأ ابنه عبدالله منذ حداثته في جو من المبادىء الحرة والتعاليم الفلسفية والمادية ، وتفقه في جميع الاديان ، وكان شديد الالحاد والانكار ، غير انه اعتنق مبادىء الاسماعيلية وزعم انه وقف على الاسرار الروحية والعلوم الخفية التي يقول الاسماعيلية ان امامهم اسماعيل علمها لابنه محمد المكتوم ، فذاعت دعوته في جنوب فارس حوالي سنة ٢٦٠ هجرية – اواخر القرن التاسع الميلادي – والتف حوله جماعة الاسماعيلية ، ولم يلبث ان قبض على ناصية الحركة ، ولم تكن دعوته الى امامة اسماعيل وبنيه الا قناعاً يستتر وراءه ، واما غايته الحقيقية فبث التعاليم المادية بين الجماعات الاسلامية المختلفة ، وقد نشط الى ادماجها في مذهب خاص ، ونظم طائفة الباطنية الاسماعيلية الى جمعية سرية هائلة مخيفة ، ذات مراتب سبع ، ثم الى تسع كما يظهر ...

الجمعية السرية الغريبة

هذه الجمعية السرية العجيبة الغريبة ، التي نجح عبدالله بن ميمون في اقامتها ، ووفق في تطبيق مبادئها الى ابعد حد ، اثارت اهتمام المستشرقين لاسباب كثيرة ، منها انها كانت الاولى من نوعها في العالم ، وان كثيراً من المذاهب السرية والشيع الخفية التي قامت في اوروبا بعد اتصال المسيحية بالاسلام في الحروب الصليبية ، استمدت

شعائرها ومبادئها وبعض اساليبها وطرقها من هذه الجمعية المخيفة ، اضف الى ذلك النزاع المخيف السري الدامي الذي اضطرم بين الباطنية والصليبيين لما حاولوا اقتحام البلاد الاسلامية ، وان كان هذا النزاع قد تطور احياناً الى محالفة ساعد فيها زعماء الباطنية الصليبيين او سكتوا عنهم ، توثيقاً لمصالحهم ، مما يدل على ان هذه الجمعية لم تكن جمعية قومية ، ولا حركة اسلامية ، تعمل للمحافظة على ارض الوطن ، ودين الاباء والاجداد ، وانما كانت حركة خاصة ، قامت لمصالح خاصة ، حتى اودت بها المصالح الخاصة .

والذي يلفت النظر ، ان جماعة عبدالله بن ميمون لم يقعوا في الخطأ الذي وقع فيه بابك الخرمي من اقتصاره دعوته على فئة قليلة من الناس ، كادت تكون محصورة في جبال ايران واذربيجان دون ما اهتمام بالعرب الذين كانوا اصحاب السلطة واكثرية البلاد ، فقد كانت دعوة بابك خاصة ، لم يعرفها العرب ، ولم يفطن لوجودها اكثر الفرس ، ثم ان بابك وجماعته لم يتعرضوا للدين ولا راحوا يعملون على هدمه ، واكتفوا ببث الدعوة الاشتراكية ، وراحوا يتحببون الى الفلاحين بعدونهم بتوزيع الارض عليهم ، ورفع المظالم عنهم .

اما جماعة عبدالله بن فقد فطنوا لهذا الضعف ، وادركوا انه لا بد من تعميم الفكرة اذا كانوا يريدون نجاحاً ، ولما كانت الامبراطورية العباسية تقوم على الدين

فقد اخذوا يهدمون الدين ، كما راحوا في الوقت نفسه يدعون الى مذهبهم كل شعوب الامبراطورية ، ولا بد من العمل بين الساخطين والناقمين اذا راموا نجاحاً ، وهو عمل فريد في بابه ، طريف في اساليبه ...

اقوال دوزي

ويصف لنا المؤرخ دوزي البرنامج الخاص الذي حاول تطبيقه ابن ميمون فيقول : « انه حاول ان يدمج المغلوبين والغالبين في هيئة واحدة ، وان يجمع في حظيرة جمعية سرية هائلة ذات مراتب عدة ، بين احرار المفكرين الذين يعملون لهدم الدين ، وبين الغلاة من جميع الطوائف ، وان يجعل من المؤمنين آلات صماء تمد المتشككين بالقوة وان يحمل الظافرين على قلب الدول التي شادوها ، وان ينشىء حزبا كبيراً مؤلفاً منظما يرفع في الوقت المناسب ان لم يكن هو ، فعلى الاقل ابناءه الى العرش ، هذه كانت غاية عبدالله بن ميمون ، وهي فكرة عجيبة نفذها بحذق مدهش ، وبراعة نادرة ، وخبرة عميقة باسرار النفس البشرية ، اما الوسائل التي تكلفها للوصول الى هذه الغايات فكانت غاية في الخبث والدهاء وبعد النظر والذكاء ... »

طريقته في الدعوة

ولم يبحث ابن ميمون عن انصاره الحقيقيين بين

المسلمين من سنة وشيعة وهو ما يدل على استقلاله في مذهبه ، ولكن بين الثنوية (١) والوثنيين وطلاب الفلسفة اليونانية ، ولم يكن يعتمد الا على الطائفة الاخيرة ، واليهم وحدهم استطاع ان يفضي بسره ، وخفي عقيدته .

غير انه تحقيقاً لغايته لم يكن يكره موآزرتهم بل كان يطلبها ويلتمسها ويسعى اليها .. ويحذر في الوقت نفسه من ان يضم الانفس المخلصة الخانعة إلا الى المرتبة الاولى من طائفته ، وكان دعاته يعلمون ان اول ما يجب عليهم عمله هو اخفاء ميولهم وعواطفهم الحقيقية واعتناق اراء سامعيهم ، يظهرون في اثواب مختلفة ، ويحادثون كل طبقة باللغة التي تروق لها ، ويموهون على العامة والبسطاء باعمال الشعوذة يعتبرونها من المعجزات ، ويتحجبون امام المخلصين بقناع الزهد والفضيلة ، ويتظاهرون امام الصوفية بانهم صوفية ، ويكشفون عما خفي من معاني الغيب ، ويشرحون الاساطير ومجازاتها .

ومن المفروض ان يعتمد عبدالله بن ميمون على طلاب الفلسفة ، لبث فكرته ، لانهم اقرب الى عقيدته ، وادعى الى الشك في العقائد الاخرى ، واما استعمال الشعوذات فكان للتأثير على البسطاء من الناس ، ولا نزال حتى يومنا هذا نرى تأثير الشعوذة الحاضرة على اهل الجيل

---

(١) اصحاب مذهب فلسفي ديني يقول : ان كل كائن مركب من عنصرين هما الخير والشر ، والنور والظلام .

الحاضر ، فكيف باهل الاجيال السابقة ...؟ وقد اسفرت هذه الوسائل عن نتيجة مدهشة ، هي ان جمهوراً عظيماً من رجال يعتنقون مذاهب مختلفة كانوا يعملون معاً لتحقيق غاية لا يعلمها الا القليل منهم ، واما فكرته الجوهرية وهي استهواء جمهور من الانصار ودفعهم الى العمل لغاية يجهلونها ، فآية الآيات في البراعة واستثمار العقول الانسانية ، وهي تدل دلالة صريحة على ان جمهرة الناس في هذا القرن ، وفي البلاد التي نشأت فيها الاسماعيلية الباطنية ، كانوا من الذين تجد هذه الاوهام عندهم مواطن رطبة سخية .

والذي يجمع عليه المؤرخون اليوم هو ان اعضاء هذه الجمعية السرية الذين بلغوا الدرجة الرابعة مثلاً ، لم يكونوا من الذين اقسموا القسم الرهيب الذي كان يربط افراد الجمعية بعضهم مع بعض ، ولم يكونوا يعرفون من اسرار الجمعية ومبادئها ، الا ما يتصل بالعقائد الدينية والادبية ، اما التعاليم السياسية والاجتماعية فلم تكن تلقى لهم الا بعد الدرجة الرابعة ، وبعد تأدية القسم الرهيب ، وكبار الدعاة كانوا جماعة قليلة ، وكانوا غالباً من الاذكياء الاقوياء المغامرين اصحاب المطامع البعيدة ، الذين اتخذوا من هذه الجمعية ومن تسترها وسريتها ، مادة لاستجلاب الجمهور الى مبادئهم ، وان كان هذا الجمهور باكثريته بريء من هذه العقائد والاوهام ...

وهذا ما يدعونا الى القول بأن التهم الكثيرة التي

تنسبَ الى هذه العقيدة يجب ان ينظر اليها كتهم قد تكون صحيحة ما تعلقت بهؤلاء القليلين من الاعضاء الذين كانوا يسيطرون على الجمعية ، وأما اكثرية الناس من الموالين فلم يكونوا على علم لا باسرار الجمعية ، ولا بعقائدها السياسية الخاصة ...

ومعلوماتنا عن عقائد هذه الجمعية ، سواء اكانت دينية او اجتماعية قليلة ، وان كانت المعلومات عن مبادئها اغزر واكثر ، ولكن الذي عليه الاجماع اليوم هو ان زعماء هذه الفرقة السرية التي انبثقت عن الاسماعيلية الاصلية ، وانقلبت بعدها الى باطنية سرية ، كان اكثرهم من اصل فارسي او يهودي ، تعصبوا لقوميتهم ودينهم المجوسي ، وراحوا يعملون على هدم الدولة الاسلامية الممثلة في الامبراطورية العباسية ذلك العهد ، بمختلف السبل والاسباب وانشاء دولة شيوعية على انقاضها ، يكون شعارها دين العقل ، ومساواة جميع الامم في الحقوق ، كما انه كان بينهم جماعة من الفوضويين الذين كانوا لا يفرضون لهذه الاراء شأناً ، وانما كان همهم الهدم والتدمير ..

واذن فان هذه المبالغات التي تنسب اليهم لا يجب ان تؤخذ على انها شيء قاطع يلحق الجميع على السواء ..

تعليقات « نيكلسون » وغيره

ويقول الاستاذ نيكلسون في كتابه تاريخ الفرس الادبي : « ان الفكرة القائلة ، بان عبدالله بن ميمون

القداح كان يحاول من نشر عقيدته القضاء على النفوذ العربي واحلال النفوذ الفارسي مكانه ، تضطرب في كثير من الاغراق ، وان السبب الذي حمل ابن ميمون على نشر دعوته ، بمساعدة رفيقه « زيدان » هو ما في العقيدة نفسها من تعاليم وتقاليد فارسية ، اثرّت عليه ، وساغها عقله ، وهو الفارسي الاصل ...

والعقيدة الاسماعيلية الباطنية جزء من العقيدة الشيعية ، ولكنها ابتعدت عن الاصل ، وتنكرت له ، فانكرها المسلمون سنة وشيعة على السواء . »

دعاة الباطنية

ولم يكن الداعية الباطني يختلف عن دعاة ابي مسلم الخراساني الذي قام في اواخر عهد الدولة الاموية ، فهو ابداً من المتعلمين اصحاب المنطق والصناعات ، وهو إما ان يكون تاجراً او طبيباً او عالماً بامراض العين مثلا ، يتظاهر بالصلاح والتقوى والكرم في الاماكن التي ينزلها والتي يكون مكلفاً بنشر الدعوة فيها ، ومتى استطاع التأثير على من حوله بهذه المظاهر الجذابة ، والتف حوله جماعة من الناس ، وثقوا بتقواه واخلاصه ، راح يدعو الى عقيدته بكثير من اللباقة والسياسة بين من يأنس اليهم او يأنسون اليه من الناس ، وهو مستعد ابداً للتراجع وانكار ما يمكن ان تفسر به اقواله اذا وجد ان دعوته هذه لم تصادف اذنا صاغية او ان السامع اخذ

يشك في امره ، واما اذا وجد السامع مشروحاً لحديثه متلهفاً لاستماع اقواله ، فانه يطلب منه قبل المضي في حواره ان ينضم الى جماعته ، وان يبايعه على الوفاء والاخلاص والمحافظة على السر ، والقيام بالمساعدة المفروضة على كل مؤمن بالامام القائم ...

وللوصول الى تحقيق هذه الفكرة الغريبة ، استعمل عبدالله بن ميمون مختلف الطرق الشيطانية ، وهاجم مواطن الضعف البشري في الانسان ، واعطى كل جماعة ما يوافق مزاجها واغراضها ، فالتقوى للمؤمن ، والحرية لطالبها ، والفلسفة لصاحبها من اصحاب العقول ، والعجائب لعامة الناس ، والروحيات لاصحاب الروحيات ، واما اصحاب الديانات القديمة ، فقد نظر ايضاً الى مواطن الضعف في نفوسهم ، فوعد اليهودي بالمسيح المنتظر ، والمسيحي بالبارقليط ، والمسلم بالمهدي ...

مبادىء الاسماعيلية الاجتماعية

واما المبادىء الاجتماعية التي نادى بها الاسماعيليون فهي المساواة بين الجنسين ، وابطال ملكية الارض وتوزيعها على المحتاجين مجاناً ، وهي مما كان يسعى اليه جماعة بابك كما قدمنا ، ولكن الاسماعيلية اختلفوا عن سواهم ، بان قاوموا في الاسلام العصبية القومية ، فنادوا بالاخاء والمساواة بين جميع الشعوب والامم ، لا بين المسلمين فقط ، فهم في هذه الفكرة اقرب الى الشيوعية

منهم الى الاشتراكية ...

وقد راح الاسماعيليون ينشرون دعوتهم بين جميع الامم الخاضعة للدولة العباسية ، وبين جميع الاحزاب والنحل الدينية ، لا يفرقون بين الاديان والاحزاب ، لان غرضهم كان عاماً وهو ان يضموا الى حظيرتهم جميع العقلاء والمثقفين ، والى هذا اشار عبيدالله بن الحسن القيرواني احد كتبة الاسماعيلية في رسالته الى احد دعاة المذهب سليمان بن الحسن ابي سعيد الجنابي حيث يقول : « واذا ظفرت بالفلسفي فاحتفظ به ، فعلى الفلاسفة معولنا ... »

العمل

على هذه الاسس التي بسطناها نشر عبدالله بن ميمون دعوة ابيه ، بعد ان ادخل فيها من روحه وفلسفته شيئاً كثيراً ، ومن المؤكد انه كان بارعاً ذكياً عبقرياً ، ولولا ذلك ما استطاع ان يجتذب اليه الآلاف من الاعوان والانصار ، يوزعهم في مختلف البلاد ، وينشيء في كل بلد من امصار الامبراطورية العباسية مركزاً للدعوة ، يعهد به الى كبير من انصاره واعوانه ، والظاهر ان مركزه الاول كان في بلدة ساباط — وهي من اعمال المدائن القديمة جنوبي الفرات — وقد عاش فيها مدة متدرعاً بالتستر والخفاء لبث دعوته ، مفضياً على نفسه ثوباً من الورع والتقوى والدعاء لآل البيت ...

ويقولون انه كان بارعاً في طب العيون وعلاجها ، وفي اعمال التنجيم والكيمياء ، وكان لمعارفه هذه كبير اثر في التأثير على العامة ، فلما عرفت السلطات بامره وبدعوته السرية ، فر الى البصرة ومعه الحسين الاهوازي احد اقطاب شيعته ومنها الى الشام حيث نزل في سلمية من اعمال حمص ، وهي البلدة التي ظلت مركز الدعوة مدة من الزمن ...

ومن المؤكد انه اخذ يبث دعاته من هذا المركز الى مختلف الاقطار ، ولكن نجاحه ظل مقصوراً على الدعوة لفكرته ، التي لم تظهر كحركة ثورية في عهده ، فثورة القرامطة لم تظهر إلا بعد وفاته ، وفي عهد أخلافه..

ويخيل الينا انه كان يترقب الفرص المناسبة ، للبدء في عمله الثوري ، وكان همه في هذا الوقت تهيئة الجو ، وتعبئة الانصار ، وليس ما يمنع انه كان في سلمية في الوقت الذي كان فيه بعض اولاده في مراكز اخرى ..

ولما توفي عبدالله بن ميمون سنة ٢٦١ هجرية أو ٨٧٤ - ٨٧٥ ميلادية على الارجح ، قام بالامر بعده ابنه احمد ، وهو الذي سير الحسين الاهوازي الى العراق حيث مهد لاضرام الثورات القرمطية التي ابتدأت جنوب العراق في حدود الثمانين (٢٨٠ هـ) على يد الفرج بن عثمان القاشاني المعروف بذكرويه وحمدان بن الاشعث المعروف بقرمط وهو الذي ينسب اليه القرامطة ..

الشيوعية في الإسلام

القرامطة وثوراتهم في العراق والبحرين

الزعيم السري

ما لدينا من تاريخ عبدالله بن ميمون واخباره قليل تافه ، فالمؤرخون يختلفون في اخباره اختلافاً عظيماً ، ولكن الاجماع ينعقد على انه اكبر هدام في الاسلام ، وانه كان من كبار الاذكياء والعلماء في عصره ، وانه فارسي الاصل ، وبعضهم يقول انه يهودي الدين ، او انه من اصل يهودي ، وانه عاش في الخفاء سنوات عديدة ، وانه بدأ في بث دعوته ، وتنظيم هذه الجمعية السرية في منتصف القرن الثالث الهجري ، متخذاً بلدة ساباط من اعمال المدائن القديمة مركزاً ، متذرعاً بمختلف الاحابيل والاسباب لاجتلاب الناس ، متعمداً التأويل في مذهبه ، والشعوذة في اعماله ، محسناً كل الاحسان في اختيار اخصائه واقطاب شيعته ، وهذه الناحية جديرة باهتمامنا ،

لان حسن اختياره للاشخاص الذين قاموا ببث الدعوة بعده ، يدل على براعة نادرة ، ومعرفة عميقة بالنفس البشرية مما لا مثيل له عند كثير من قادة الشعوب من قديم وحديث ...

ويهمنا ان نقرر هنا ان الجمعية السرية التي اسسها عبدالله بن ميمون ، وان كانت قد انبثقت من الحركة الاسماعيلية ، التي انبثقت بدورها من الحركة الشيعية تختلف كل الاختلاف عن الاسماعيلية الحقيقية ، فالاسماعيلية المنبثقة من العقيدة الشيعية حركة دينية ، واما الجمعية السرية التي وضع برامجها عبدالله بن ميمون فحركة سياسية ترمي الى هدم الدولة العباسية باساليب جديدة لم يكن للناس بها عهد ، ولم يفطن لها احد من خصوم العباسيين قبلا ..

وشيء آخر ايضاً وهو ان الحركة الباطنية التي انبثقت بدورها عن الاسماعيلية ، وعن الجمعية السرية التي اسسها عبدالله بن ميمون تختلف ايضاً باغراضها عن هذه الجمعية السرية الميمونية (١)

فالحركة الاسماعيلية السرية التي نعرض لها في كتابنا هذا ، هي حزب سري كان يرمي الى القضاء على الخلافة العباسية ، على ان تقوم مقامها دولة اشتراكية لا تنتمي الى آل البيت كما يطلب الشيعة ، وعلى ان يكون احد اولاد عبدالله بن ميمون زعيمها ورئيسها ، وهذه الدعوة

---

(١) انظر كتابنا المقبل (قلعة الموت)

كانت سلمية اول الامر ، توسلت الى اغراضها بالحجة والاقناع ، وذلك في ايام عبدالله بن ميمون نفسه ، فلما توفي اواخر القرن الثالث الهجري ، وقام ابنه بالامر بعده استنفر دعاته الى السلاح ، فنفروا ، وكان من اثر ذلك حركات القرامطة وثوراتهم التي طالت ما يقرب من المائة عام ...

كان عبدالله بن ميمون يبث دعوته في ساباط اولاً كما قدمنا ، فلما علم عمال بني العباس بامره ، وانه يعمل لآل البيت ظاهراً ، ولنفسه سراً ، جدوا في ملاحقته ، ففر الى البصرة ، ومعه الحسين الاهوازي احد كبار دعاته وانصاره ، ولكنه وجد البصرة لا تزال قريبة من بغداد وان السلطات قد اخذت تبحث عنه في مختلف انحاء العراق ، فقرر السفر الى الشام حيث تفصل بينه وبين الخلافة الصحراء ، فغادر البصرة الى الشام ، ثم رأى من الحكمة ان يستكين الى قرية نائية بعيدة عن خصومه فاستقر رأيه على النزول في سلمية من اعمال حمص ، واتخذها مركزاً للدعوة حتى مات وهو فيها ..

اولاده من بعده

وخلفه في زعامة الحركة ابنه احمد ، وهو الذي سير الحسين الاهوازي الى العراق ، لان العراق بما فيه من مختلف الشيع والجماعات كان اقرب الى قبول الدعوات المتطرفة منه الى غيره من امصار الامبراطورية ...

وفي العراق اتصل الحسين الاهوازي بحمدان قرمط الذي تنسب اليه القرامطة ، ولكن حمدان هذا ليس مؤسس الحركة القرمطية ، وان كانت تنسب اليه ، ومن المؤكد انه احد دعاتها ، ويخيل الينا انه لم يكن موجوداً في السلمية مركز الدعوة ، وان الحسين الاهوازي اتصل به في العراق فضمه اليه بعد ما وثق من اخلاصه ومقدرته وبراعته في بث الدعوة ونشرها ... (١)

الدعوة في العراق

بدأت الدعوة بالعراق على يد الحسين الاهوازي ،

---

(١) جاء في دائرة المعارف البريطانية عن الحركة الاسماعيلية ونشوء القرامطة ما يلي :

القرامطة فرقة اسلامية ، اخذت اسمها عن حمدان قرمط الذي تقبل التعاليم الاسماعيلية من حسين الاهوازي احد دعاة الاسماعيلية . . وداعية احمد بن عبدالله بن ميمون الفارسي في اواخر القرن التاسع الميلادي . .

ونشطت الحركة في سواد العراق الذي كانت تسكنه جماعة ضعيفة الايمان بالاسلام . .

وكان غرض عبدالله بن ميمون هدم الاسلام ، والسلطان العربي ، بواسطة جمعية سرية ذات مراتب عديدة ، تساعد سريتها على ذيوعها وانتشارها ، بين مختلف الجماعات والتي كان من غاياتها حمل الناس على تفسير الاسلام بوسائل يكون من نتائجها انكار الدين آخر الامر ، مع الايمان المطلق بزعيم الجمعية . . .

دائرة المعارف البريطانية الطبعة ١٣ – القرامطة –

والظاهر انه قام ببث الفكرة اولاً بين جماعة استطاع الاطمئنان اليهم والاعتماد عليهم ، ثم نرى اسمه ينكسف فلا يعود يظهر ، وتتألق مكانه اسماء جديدة ، مثل الفرج بن عثمان القاشاني ، المعروف « بذكروية » ، وحمدان بن الاشعث المعروف « بقرمط » ...

والذي يبدو لنا ان الحسين الاهوازي بعد ان قام بدوره من بث الدعوة ذهب الى سلمية ، حيث يقيم صاحب الزمان الامام الاكبر احمد بن عبدالله ميمون ، او ذهب يبث دعوته في مكان آخر ، تاركاً مهمة الدعوة بالعراق الى من وقع اختياره عليهم من الدعاة ...

ويقول المؤرخون ان الفرج بن عثمان القاشاني كان يبث الدعوة سراً ، ثم صدر الامر من صاحب الزمان ببث الدعوة جهراً ، فظهر عندئذ حوالي سنة ٢٨٠ هجرية ، رجل اشتهر بالبراعة والاستهواء يبثها جهراً وذلك على مقربة من الكوفة وجنوبي العراق ... (١)

رواية ابن الاثير

على ان ابن الاثير في تاريخه يحدثنا برواية اخرى عن كيف ظهرت الحركة القرمطية فيقول :

« كان ابتداء امر القرامطة ان رجلاً قدم من ناحية

---

(١) من هو هذا الرجل الذي كان بارعاً في الاستهواء ؟؟ اهو حمدان قرمط؟ ام هو زكروية ؟؟

« خوزستان » حيث مركز الدعوة الميمونية الى سواد الكوفة ، فكان بموضع يقال له النهرين يظهر الزهد والتقشف ، ويأكل من كسب يده ويكثر الصلاة ،فاقام على ذلك مدة ، فكان اذا قعد اليه رجل ذاكره امر الدين ، وزهده في الدنيا ، واعلمه ان الصلاة المفروضة على الناس خمسون صلاة في كل يوم وليلة ، حتى فشا امره ثم اعلمهم — اعلم من حوله — انه يدعو الى الامام من آل البيت ، فلم يزل على ذلك حتى استجاب له جمع كثير ، وكان يزداد في اعين الناس نبلا بما يظهره من الزهد ، ثم مرض ، فحمله رجل يدعى « كرمتيه » الى بيته حتى برأ ، ودعا اهل تلك الناحية الى مذهبه ، فأجابوه وكان يأخذ من كل واحد من اتباعه ديناراً للامام ، وجعل عليهم اثنا عشر نقيباً سماهم الحواريين ، فأشتغل اهل الناحية عن اعمالهم بما رسم لهم من الصلوات ، ولما علم العيصم صاحب الضياع الكثيرة في تلك الناحية بامره ورأى تقصير عماله بسببه ، حبسه ، ففر من سجنه في ظلام الليل بمساعدة جارية العيصم ، واختفى حيناً من الزمن ، فازداد انصاره فتنة به ، وقالوا : رفع الى السماء ... ثم ظهر في ناحية اخرى من الكوفة ، وعكف على بث الدعوة ، ثم فر الى الشام ، ولم يعلم عنه شيء بعد ذلك ، ويقال انهم اطلقوا على هذا الرجل اسم كرمتيه ثم خفف فقيل قرمط ...» (١)

(١) حمدان قرمط ...

وذكر غيره من المؤرخين : ان حمدان هذا كان اكاراً بسيطاً يعتمل الارض لغيره ، اختاره احد كبار دعاة الجمعية السرية ليكون داعيته في العراق (١) فبنى قرب الكوفة مركزاً للدعوة اسماه « دار الهجرة » حيث كان يجتمع الاعضاء في اوقات معينة ، فيخطبهم حماد بمذهبه الاشتراكي ، ويلقي عليهم اوامر الزعيم الاكبر « امام الزمان » ، ولما رأى حماد اقبال القوم على دعوته ، وكان جلهم من النبط والعرب المستعربة ، افضى اليهم بنظامه الاشتراكي العجيب ...

ويقول كلارادي فو في كتابه مفكرو الاسلام : « القرامطة فرقة من الاسماعيلية ، وقد اسس هذه الفرقة احد الدعاة الذين كانوا يقومون بالدعوة في سواد الكوفة ، وهو حمدان قرمط ، ثم فشا امر القرامطة في سواد الكوفة ، واستغله الدعاة ، فأخذوا يجعلون على الرجل الذي قبل المذهب ديناراً واحداً في السنة ، كما ادخل الدعاة المذهب الاشتراكي في الدعوة وبين اعضاء المذهب بطريقة طريفة . »

المذهب الاشتراكي السبوعي

وقد بدأوا اولاً بضريبة الدينار الواحد السنوية على كل رجل ، على ان يصار الى ارسال هذه الضريبة الى

---

(١) الفهرست لابن النديم

الزعيم الاكبر لتهيئة الجو اللازم لظهور المهدي، ثم رفعوا الضريبة الى ثلاث قطع ذهبية، ثم طلبوا خمس واردات الشخص، واخيراً طلبوا من المؤمنين بمذهبهم ان يجتمعوا في كل قرية وان يضموا اموالهم بعضها الى بعض ليصار الى قسمتها بالتساوي على كل فرد، وكان يصار في الوقت نفسه الى ارسال احد الدعاة الموثوق بهم الى هذه القرى للاشراف على جمع الاموال المنقولة من الفضة والذهب والحبوب والنسيج وغيرها – وكان على العامل ايضاً ان يضع اجرة عمله في الصندوق العام – ومتى صار جمع هذه الاموال، اعطى المكلف بامر الدعوة كل شخص ما يحتاجه من الاموال والحبوب والملابس وغيرها، واهتم كل الاهتمام بأن لا يقع احد من المؤمنين في حاجة إلا صارت مساعدته بسرعة من الصندوق العام، وهذه طريقة تثير اعجاب اعظم الشيوعيين المعاصرين.

ويصف بعض المؤرخين مختلف الضرائب المفروضة وصفاً آخر فيقولون: انها كانت عبارة عن دينار واحد في السنة لامام الزمان، ثم ضريبة ثانية تعرف عندهم «بالفطر» وهي درهم يؤدونه جميعهم، وضريبة ثالثة تعرف «بالهجرة» وهي دينار يؤديه كل بالغ وبالغة لينفق على دار الهجرة ومصارفاتها، وكانوا جميعهم يؤدون هذه الضرائب في اوقاتها، ومن كان يعجز منهم، كان يقوم غيره بتأدية ما عليه ...

والذي لا شك فيه ان مجتمع القرامطة قام على الشيوع والاباحة ، فقد بدأ قرمط يجمع من انصاره الضريبة العامة بنسب صغيرة ، ثم بنسب كبيرة ، كما قدمنا ، وانتهى بأن اقتنع سوادهم بمزايا الغاء الملكية الفردية ، ونظم لهم في كل مكان وجدت فيه طائفة منهم مجتمعاً شيوعياً ، قرر شيوع المرأة وغير ذلك من صنوف الاباحة القائمة ، وقد وصف لنا المؤرخ دي ساسي دعوة قرمط هذه معتمداً على بعض المراجع ، فقال :

« لما فاز قرمط بتنفيذ كل ذلك ، ووافقه عليه كل صحبه ، امر الدعاة ان يجمعوا النساء في ليلة معينة ، بحيث يمكن للرجال ان يستمتعوا بهن في اختلاط وشيوع ، وكان يقول : ان ذلك هو الكمال واقصى درجات الصداقة والاخاء ، واحياناً كان الزوج يقدم زوجته بنفسه الى رفاقه متى سرهم ذلك ... ولما رأى قرمط انه صار السيد المتسلط على عقولهم ، ووثق من طاعتهم ، بدأ يسير بهم نحو طريق اخرى ، فنشر فيهم مذهب الثنوية ، واعتنقوا كل تعاليمه بسهولة ، ولم يلبث ان نزع منهم كل دين ، واحلهم من كل فروض العبادة والتقوى ، واباح لهم النهب وكل ضروب الاباحة ، وامرهم ان يتركوا الصلاة والصوم وغيرهما ، واعلمهم ان لا فريضة عليهم ، وان لهم ان ينهبوا اموال خصومهم ، وان يسفكوا دماءهم بلا

وازع ولا عقاب ، وان معرفة رب الحقيقة الذي دعاهم اليه يملأ لديهم فراغ كل شيء آخر ، وان هذه المعرفة تبعد عنهم كل خطيئة وعقاب .

المراكز السرية

ويظهر ان حمدان قرمط كان يعمل اول الامر في واسط ثم انتقل الى (كلوزه) وهي قريبة من بغداد عاصمة العباسيين ، ينشر دعوته ويبث دعاته ، ويبعث الى امام الزمان او وكيله القريب منه — وكان شقيق احمد بن عبدالله بن ميمون — بتقاريره عن سير الدعوة ، واخبار العباسيين السياسية ...

وكان يساعد حمدان قرمط في اعماله شقيق امرأته « عبدان » الذي الف عدة رسائل في تأييد الدعوة (١) والظاهر ان احد اولاد عبدالله بن ميمون كان يقيم في بلد اسمه تليكان من اعمال فارس ، لان بعض المؤرخين يذكرون مكاتبة حمدان له ، وارسال التقارير السياسية اليه..

فاذا صح هذا فنحن امام جمعية سرية كانت لها خلايا في مختلف البلاد ، وعيون في شتى امصار الامبراطورية العباسية ، وكانت هذه المراكز السرية العديدة ، تعمل بمختلف الوسائل والاساليب لتعزيز فكرتها ، والاكثار

(١) ذكر صاحب الفهرست ثمانية من كتبه ، يظهر انه قرأها وكانت منتشرة في عهده ، ومن هذه الرسائل « البلاغات السبعة» الذي اشار اليه الوزير نظام الملك في مذكراته..

من الانصار ، وجمع المال اللازم من مختلف الضرائب المفروضة ، حتى اذا حان الوقت للظهور كان كلّ شيء جاهزاً ، ينتظر امر صاحب الزمان لحمل السلاح واعلان الثورة ...

تكوّن في العراق مركز قوي للدعوة بزعامة ذكروية ، وتكوّن مثله في جنوبي فارس والبحرين والاحساء بزعامة ابي سعيد الجنابي .

واخذت هذه المراكز تتسع وتنبسط وتنتشر حتى عمت اكثر البلاد العربية ، ونفذت الى اليمن ، وسورية ، وكان رجالها ممن حَسُن اختيارهم ، واختُبر ذكاؤهم ، وكانوا كلهم يعملون تحت مراقبة دعاة اعظم منهم شأناً واكبر خطراً ، وكانوا جميعهم ينتظرون الفرصة السانحة للانقضاض على الامبراطورية العباسية وتمزيقها ، ولكن الامبراطورية لم تكن قد قاربت نهايتها ، والثورات التي قام بها القرامطة في هذه الفترة خصوصاً ما قاموا به في خلافة المعتضد – اواخر القرن الثالث الهجري – فشلت جميعها ، وان كانت قد اتعبت الامبراطورية ، واستنفزت كثيراً من قواها ...

ثورة في العراق

وظهرت الثورات القرمطية اول ما ظهرت في العراق في حدود سنة ٢٨٠ هجرية ، وكان ظهورهم في سواد الكوفة ، حيث اخذوا يفسدون الناس ويتهجمون على السلطان

فارسل عليهم الخليفة العباسي المعتضد الجنود ، الفرقة بعد الاخرى ، وكان زعيمهم الفرج بن عثمان القاشاني الداعية المعروف فلما رأى ما حل بجماعته ، وظفر جنود المعتضد بهم ، هرب الى حي من احياء العرب النائية واختفى في القفر ، في مغار بناه لذلك ، وبعث اولاده الدعوة بين قبائل الصحراء ، فتفرقوا مدعين انهم من ولد اسماعيل الامام ، وكانوا ثلاثة يحيى وحسن وعلي ، فلم ينجح منهم سوى يحيى الذي بايعه بعض القبائل ، على انه يحيى بن عبدالله بن محمد بن اسماعيل الامام ولقبوه بالشيخ . (١)

جرائرهم

وفي سواد الكوفة تمكن « شبل » احد قواد المعتضد من الظفر بجماعة القرامطة فيها ، واسر رئيساً لهم يسمى ابا الفوارس ، وقد وصف لنا بن الاثير امره فقال :

« فأحضره (المعتضد) بين يديه وقال له : اخبرني ، هل تزعمون ان روح الله وارواح انبيائه تحل في اجسادكم فتعصمكم من الزلل وتوفقكم لصالح العمل ؟ »

فقال له : يا هذا ان حلت روح الله فينا فما يضرك وان حلت روح ابليس فما ينفعك ، فلا تسأل عما لا

(١) يذكر المستشرق دي غويي ، في رسالته عن القرامطة ، ان قرمط زعيمهم حاول الاتفاق مع الزنج الذين كانوا في ثورة مع الدولة العباسية فلم يوفق الى ذلك .

ينفعك وسل عما يخصك ..

فقال له : وما تقول فيما يخصني ؟

قال : اقول ان رسول الله صلى الله عليه وسلم مات وابوكم العباس حي ، فهل طالب بالخلافة ام هل بايعه احد من الصحابة على ذلك ؟ ثم مات ابو بكر ، فاستخلف عمراً وهو يرى موضع العباس ولم يوص له ، ثم مات عمر وجعلها شورى في ستة نفر ، ولم يوص له ولا ادخله فيهم ، فبماذا تستحقون الخلافة وقد اتفق الصحابة على دفع جدك عنها ؟

فأمر به المعتضد ، فعذب وخلعت عظامه ثم قطعت يداه ورجلاه ...

فهذا الكلام وتلك اللهجة التي يخاطب بها احد زعماء القرامطة خليفة المسلمين تدل دلالة واضحة على استبسال القوم وجرأتهم في الافصاح عن آرائهم ومذهبهم ، وقد ظل القرامطة بعد المعتضد في حروب مع المكتفي ومن بعده من الخلفاء طوال القرنين الثالث والرابع الى قبيل منتصف القرن الخامس يُهزمون ويَهزِمون ، حتى دوخوا الدولة وشقيت بهم الناس ، وعانت الدولة العباسية في سبيل قمع حركتهم جهداً كبيراً ، وشغلوا بحركاتهم المجوسية جانباً عظيماً من وقت الخلفاء ، فحشدوا لهم الجيوش يقاومون دعوتهم الجريئة وخروجهم عليهم ، وكثيراً ما انهزمت جيوش الخلفاء امام جيوشهم واستماتتهم في الدفاع ، وكم من غنائم ظفروا بها وارواح أودوا

بأصحابها ، وكم من أسرى قتلوهم وصفدوهم بالاغلال .

وأظهر ما في تاريخهم في تلك السنوات العديدة اتخاذهم القتل والتعذيب وسيلة الى دعوتهم ونشر مذهبهم ، واشد من ذلك اعتداؤهم على قاصدي بيت الله يقتلونهم ويسلبونهم اموالهم وينشرون الرعب في القلوب حتى قل زائرو الكعبة وانقطعوا عن الحج في بعض السنين ، كما اعتدوا على الحجر الاسود ونقلوه الى احد حصونهم ، حيث بقي فيه نحو اثنتين وعشرين سنة .

القرامطة في البحرين

وكان بدء ظهور القرامطة في البحرين على يد رجل يعرف بيحيى بن المهدي — وهو احد اولاد ذكرويه — فنزل على رجل يدعى علي بن المعلي ، وكان يغالي في التشيع ، فأظهر له يحيى انه رسول المهدي ، وكان ذلك سنة ٢٨١ هجرية ، وذكر انه خرج الى شيعته يدعوهم الى امره ، وان ظهور المهدي قريب ، فأرسل علي بن المعلي الى شيعته من اهل القطيف ، فأقرأهم كتاب يحيى الذي زعم انه من المهدي ، فأجابوه ، وكان فيمن اجابه ابو سعيد الجنابي الذي تولى الزعامة فيما بعد ، وظل يحيى يغيب عنهم ثم يعود اليهم ، وفي كل مرة يطلب منهم المال زاعماً انه يذهب به الى المهدي الذي سيظهر قريباً ، وكان يحيى يتردد في قبائل قيس ويورد اليهم كتباً يزعم انها من المهدي وانه ظاهر ، فكونوا على اهبة ...

وفي بعض المصادر ان حمدان بن الاشعث او قرمط هو الذي بعث بأبي سعيد الجنابي الى البحرين ، وقد يكون فعل ذلك بامر من « زكروية » ، وان الجنابي لم يكد يصل الى البحرين حتى اخذ يلتف حوله كل ناقم على سياسة بني العباس ، وسكان البحرين كما هو معروف من الاعراب الذين كانوا من اول المرتدين والخارجين على الاسلام بعد وفاة رسول الله ، فلا عجب والحالة هذه اذا ايدوا الدعوة القرمطية وما فيها من انكار الدين وفنون الاباحة ...

ويروي ابن الاثير ان الجنابي ترك ليحيى امرأته ، وامرها ان لا تمنعه ، فانتهى الخبر الى العامل ، فأخذ يحيى وضربه وحلق رأسه ولحيته ، فهرب الى بني كلاب وعقيل وهم جماعة من الاعراب ، وانضم اليه الجنابي ، واخذ يحرض الناس على الانضمام لحركته ، ففشا امره ، وعظم خطره ، وظل هذا شأنه ، حتى احس انه من القوة بحيث يستطيع فرض سلطانه على البحرين ، فثار وايده من انضم اليه من شيعته وغير شيعته ... لان هناك كثيرين من الاعراب قد انضموا اليه طمعاً في المال ، الذي يأتيهم من الغزو واقتحام المدن ، والحصول على الغنائم العديدة من الاموال والامتعة والأسرى من النساء والاولاد ...

والذي يلفت النظر في امر هذه الثورات انها لم توفق اول الامر خصوصاً في العراق ، ولعل سبب ذلك ان العراق كان مركز الامبراطورية ، وكان بمقدور الخليفة ارسال الجند لنجدة المدن المهددة ، واما حين كانت تظهر الثورة مثلاً في البحرين ، فقد كان من الصعب اخمادها ، لبعد البحرين عن مقر الخلافة ...

الغزو

ولذلك تمكن الجنابي من الاستيلاء على البحرين بكثير من السهولة ، ولم يبق تحت سلطان الخلافة الا عاصمة البحرين وبعض القرى المجاورة لها .

ولما زحف الجنابي على البصرة سنة (٢٨٣ هجرية ٩٠٠ م) امدّ الخليفة المعتضد عامله فيها بعشرة آلاف من الجند ، فزحف بهم لدفع القرامطة فلم يوفق ، وقضى القرامطة على الجند ، وذبحوا الاسرى ولم يبق الجنابي الا على قائد الخليفة عباس الغنوى ، وارسله الى بغداد ليقص على امير المؤمنين ما رأى وسمع ... كما ارسل معه الى الخليفة كتاباً غريباً اغضب المعتضد كل الغضب واقامه واقعده ... ولكن الموقف في الواقع كان فوق طاقته ، فالجنابي ورجاله كانوا جماعة بينهم وبين جند الخليفة صحراء واسعة لا طاقة لجند منظم ان يحارب على رمالها عدواً تعود العيش فيها ...

ولما عاد الجنابي الى البحرين ارتد على هجر العاصمة

وحاصرها واستولى عليها سنة ٢٨٧ هجرية ، ثم زحف الى اليمامة فضمها الى مملكته الجديدة ، وفعل مثل ذلك في قسم كبير من عمان ، ولولا مقتله في الحمام سنة ٩١٤ ميلادية ، لاقتحم الجزيرة العربية كلها ، وازالها من سلطان العباسيين ، واقام فيها جمهورية اشتراكية شيوعية على النحو الذي بسطناه قبلا .

ونرى قبل المضي في بسط اخبار القرامطة في البحرين والجزيرة العربية بعد وفاة زعيم الجنابي ان نعرض لاخبارهم في سوريا وفلسطين واختلافهم مع الفاطميين .

الشيوعية تشق طريقها

في سورية والحجاز

تهديد الشام

بعد ثلاث سنوات من استيلاء ابي سعيد الجنابي زعيم القرامطة على عاصمة البحرين ، رأى « زكروية » ان الفرصة سانحة لمهاجمة سورية واقتحامها ، خصوصاً وان حكومة بغداد وقفت موقف المتفرج من انتصارات القرامطة في البحرين ، فلم تحرك ساكناً ، ولم ترسل جيشاً ، وقد قدمنا ان مرد ذلك كان بعد الشقة وصعوبة المواصلات ، ولم يفطن زكروية الى ان الشام غير البحرين ، وان سورية قريبة من العراق ومصر معاً ...

فلما كانت سنة ٢٩٠ هجرية امر زكروية ابنه يحيى بالتقدم نحو دمشق ، فسير اليه طغج واليها جيشاً عليه غلام له اسمه بشير ، فهزمهم القرامطة ، وقتلوا بشيراً ، وحصروا دمشق ، وضيقوا على اهلها ، وقتلوا من اصحاب

طغج عدداً عظيماً ، وماجت بغداد ، وطلبوا من الخليفة ان يبعث قوة لانقاذ دمشق ، وامد المصريون اهلها بالرجال والقواد – وكانت دمشق في حوزة خمارويه بن احمد بن طولون ، وكان طغج ينوب عن بني طولون في ادارتها وضبطها – ووصلت الامدادات الى دمشق بسرعة ، وكانت المعركة سريعة فاصلة ، قُتل فيها يحيى بن زكروية المعروف بالشيخ عندهم ، على باب دمشق ، وارتد اصحابه عنها ، ليلموا شعثهم ، ويبايعوا الحسين اخاه الذي تلقب بأمير المؤمنين ، وسمي بصاحب الشامة ، لشامة كانت في خده ، فلما اشتدت شوكة حسين هذا ، سار الى دمشق كرة ثانية ، فصالحه اهلها على خراج دفعوه له وانصرف عنهم ...

قتل صاحب الشامة

ثم سار الى حمص واطرافها فغلب عليها ، وخطب له على منابرها وتسمى المهدي امير المؤمنين ، واقتحم حماه ومعرة النعمان ، وغيرهما ، فقتل اهلها حتى النساء والصبيان ، ثم سار الى بعلبك فقتل عامة اهلها ولم يُبق منهم الا اليسير ، ثم سار الى سلمية فمنعه اهلها ، ثم صالحهم واعطاهم الامان ففتحوا له بابها ، فقتلهم جميعاً ، فثار الناس واهتمت حكومة بغداد للامر ، وسار الخليفة المكتفي بنفسه اليهم حتى نزل الرقة ، وسيّر الجيوش اليهم ، وزعيمهم الحسين صاحب الشامة – ابن زكروية –

وهزمهم وقتل منهم عدداً عظيماً ، وتفرق الباقون في البوادي ، وهرب الحسين زعيمهم فقبض عليه بعض رجال الخليفة وسيروه اليه ، وادخل القرمطي الى بغداد على فيل ، واصحابه على الجمل ، وامر المكتفي بعد وصوله بضرب اعناق الاسرى الثائرين ، وضرب صاحب الشامة مائتي سوط ، وقطعت يداه ، وكوى ، فغشي عليه ، ثم اخذوا خشباً ووضعوا فيه ناراً ، ووضعوه على خواصره ، فجعل يفتح عينه ويغمضها ، ثم ضربوا عنقه ورفعوا رأسه على خشبة ، ونصب على الجسر في العاصمة .

زكرويه

فلما بلغ زكرويه ما حل بولده ، انفذ عبدالله بن سعيد وكان معلما باحدى القرى ، فتسمى «نصراً» ليعمي امره ، فدار في احياء العرب يدعوهم الى رأيه ، ووفق الى استغواء طوائف منهم ، وذهب على رأسهم الى جهات الشام ، فاغار على مدينتي بصرى واذرعات ، فحارب اهلها ثم امّنهم ، فلما استسلموا قتلهم وسبى زراريهم ، واستصفى اموالهم ، وكان لا معدي له عن ذلك او ينفض هؤلاء الاعراب من حوله وهم انما ايدوه رغبة في المال والسلب ، ثم سار يريد دمشق ، فلم يوفق الى دخولها ، وارسل الخليفة جيشاً لرده ، فلما سمع القرامطة بتقدم الجيش نحوهم ، عطفوا نحو السماوة ، فتبعهم الجيش فلم يوفق الى دركهم .

واغار نصر على اهل هيث فسبى وقتل وذهب الى

البادية ، فارسل اليه الخليفة محمد بن اسحق في جيش ، ولما علم بنو كلب بتوجه الجيوش اليهم عمدوا الى «نصر» فقتلوه وتقربوا برأسه الى الخليفة المكتفي ، واظهروا الخضوع والتوبة ، فعفا عنهم ، اما بقية القرامطة ، فانحازوا الى البادية .

ولما علم زكروية بمقتل نصر ، ارسل الى جماعته داعية جديداً اسمه القاسم بن احمد ، واعلمهم ان وقت ظهورهم اصبح قريباً ، وانه قد بايع له من اهل الكوفة اربعون الفاً ، وامرهم باخفاء امرهم والتحيز حتى يصبحوا الكوفة يوم النحر سنة ٢٩٣ ، فانهم لا يمنعون عنها ، وانه يظهر لهم وينجز لهم وعدهم الذي وعدهم اياه ، فامتثلوا امره ، ووافوا باب الكوفة ساعة انصراف الناس من صلاة العيد ، وعددهم نحو ٨٠٠ فارس عليهم الدروع وآلات الحسنة ، ودعوا « يا لثارات الحسين » ، يعنون الحسين بن زكروية ، المصلوب ببغداد ، وشعارهم يا احمد يا محمد ، يعنون ابني زكروية المقتولين ، واظهروا الاعلام البيض وارادوا استمالة رعاع الكوفة ، فلم يمل اليهم احد ، فاوقعوا بمن لحقوه من العوام وسلبوا جماعة ، وبادر الناس الى الكوفة فدخلوها ، وتنادوا السلاح ، ونهض العامل بمن عنده من الجند فحاربهم فارتدوا نحو القادسية .

ظهور زكروية

ولما رأى جماعة القرامطة انهم لم يوفقوا في الشام

ارسلوا الى «زكروية» فاستخرجوه من جب في الارض كان منقطعاً فيه سنين كثيرة ، بقرية الدرية ، وكان على الجب باب من الحديد محكم الصنع ، وكان زكروية اذا خاف الطلب جعل تنوراً على باب الجب ، وقامت امرأة تضرمه فلا يفطن اليه احد .

وكان ربما أخفي في بيت خلف باب الدار التي كان يسكنها ، فاذا انفتح الباب ، انطبق على باب البيت ، فيدخل الداخل الدار فلا يرى شيئاً ، فلما استخرجوه حملوه على ايديهم وسموه «ولي الله» ولما رأوه سجدوا له وحضر معه جماعة من دعاته وخاصته ، واعلمهم ان القاسم بن احمد من اعظم الناس عليهم ذمة ومنة ، وانه ردهم الى الدين بعد خروجهم عنه ، وانهم ان امتثلوا اوامره انتصروا على خصومهم ونالوا ما يريدون .

فانضم اليه منهم جماعة وجعلوه رئيسهم وكهفهم ، وايقنوا بالنصر وبلوغ الامل ، وسار بهم وهو محجوب يدعونه بالسيد ولا يبرزونه ، والقاسم يتولى الامور واعلمهم ان اهل السواد قاطبة سيخرجون معه ، ويؤيدونه ، ويحاربون في سبيله ...

الانتصار

واقام بسقي الفرات عدة ايام ، فلم يصل اليه من اهل السواد الا خمسماية رجل ، ثم وافته جنود المكتفي فلقيهم زكروية بالصوان وقاتلهم ، واشتد الحرب بينهم ،

وكانت الهزيمة آخر النهار لجنود الخليفة لظهور كمين اعده زكروية من ورائهم ، ووضع القرامطة السيف فيهم ، وغنموا من السلاح والذخيرة الشيء الكثير ، وقتل من اصحاب الخليفة الف وخمسماية رجل سوى الغلمان ، وبلغ الخبر بغداد ، فعظم الامر على المكتفي وندب الى القرامطة محمد بن اسحق وضم اليه من الاعراب بني شيبان وغيرهم اكثر من الفي رجل ، واعطاهم الارزاق والسلاح ومناهم بالوعود والهدايا ...

نكبة الحجاج

فلما كانت سنة ٢٩٤ اوقع زكروية بالحجاج وقتل النساء والاطفال والجريح والعاجز والاسير والعاني ، وكان نساء القرامطة يطفن بالماء بين القتلى ويعرضن عليهم الماء فمن كلمهن قتلنه ، فقيل ان عدد القتلى كانت عشرين الفاً وكان مبلغ ما اخذوه من قوافل الحجاج من المال يقدر بمئات الالوف من الدنانير ، ولم يزل هذا شأن زكروية وجماعته حتى سير المكتفي اليه جنداً عظيما بقيادة صوارتكين ، فادركوا القرامطة بظاهر حمص ، ونشبت بينهما موقعة هائلة كسر جند الخليفة فيها القرامطة شر كسرة ، واسروا زكروية وهو جريح ، واخذوا خليفته وجماعة من خواصه واقربائه وفيهم ابنه وامرأته وكاتبه ، واحتوى الجند على ما في العسكر ، وعاش زكروية خمسة ايام بعد المعركة ومات ، فسيرت جيفته والاسرى

الى بغداد ، وانهزم جماعة من اصحابه الى الشام ، فاوقع بهم الحسين بن حمدان قائد جيش الخليفة فقتلهم جميعاً ، وتتبع رجال الخليفة القرامطة في العراق ، فقتلوا بعضهم وسجنوا البعض الاخر حتى ماتوا في السجن . اما علي ابن زكروية فيظهر انه ، بعد مقتل اخيه يحيى ، هرب الى اليمن ، واجتمع اليه القرامطة فيها ، وتغلب على كثير من مدن اليمن ولبث يعبث فيها بجنده حتى توفي.(١)

القرامطة في اليمن

(١) اجتاحت دعوة عبدالله بن ميمون اليمن كما اجتاحت غيرها من امصار الجزيرة العربية فأرسل ابناء عبدالله بن ميمون دعاتهم اليها فغلبوا على اليمن بعد معارك وحروب دامية ، واغاروا على من حولهم غزواً ، فكثرت اموالهم وارسلوا قسماً منها الى امام الزمان من ولد عبدالله بن ميمون القداح ، فاستعان بها في دعوته ، كما انهم بعد انتقال ابناء عبدالله بن ميمون الى افريقيا ومنها الى مصر حيث اسسوا الدولة الفاطمية ، راح خلفاء القرامطة الاول في اليمن ، وكبيرهم علي بن محمد الصليحي وذلك قبيل منتصف القرن الخامس الهجري ٤٣٩ هجرية ، يكاتب الفاطميين في مصر ، ويوجه اليهم الهدايا ، فوجه اليه معد المستنصر صاحب مصر في ذلك الحين بالرايات والالقاب وعقد له الالوية واقره على ما تحت يده من المدن ، عظم شأنهم في اليمن بعد هذا

ويذكر لنا ابن الاثير وغيره (١) نص كتابين احدهما من ذي الشامة الى عامل من عماله ، والثاني من عامل الى ذي الشامة ، ومن مطالعة الكتابين يظهر لنا ان ابناء زكروية يدعون لانفسهم وانهم كانوا لا يدينون بالطاعة لشيعة من الشيع المعروفة في عصرهم ...

القرامطة في البصرة

وفي هذه الفترة التي كانت تجتاح فيها حركة القرامطة الجزيرة والسواد ومشارف الشام وحواضرها ، كان القرامطة في البحرين ، لا يقصرون عن زملائهم في العراق غزواً ونفوذاً ...

فقد توفي ابو سعيد الجنابي – الحسين بن بهرام – قتلاً سنة ٣٠١ هجرية ، و ٩١٤ ميلادية ، بعد ان ملك البحرين واليمامة كما قدمنا ، وقام بالامر بعده اشهر اولاده ابو طاهر سليمان الجنابي ، وكانت له غزوات كثيرة الى البصرة ، واشهر غزواته لها سنة ٣١١ – ٩٢٤ ميلادية فقد سار اليها في الف وسبعمائة رجل من جماعته ، ودخلها ، وقتل حاميتها ، ووضع السيف في اهلها واقام

التاريخ واستولوا على اليمن كله ، وقتل الصليحي هذا في يوم السبت ١٢ ذي العقدة سنة ٤٧٣ ، ولما قام صلاح الدين الايوبي استأصل القرامطة وفتك بهم فأفناهم ...

(١) ابن الاثير

بها سبعة عشر يوماً ، وحمل منها ما قدر عليه من الاموال والامتعة والنساء والصبيان ، ثم عاد الى البحرين ، فما لبث فيها الا قليلاً ، حتى امر جماعته بالتأهب لغزوة جديدة كانت من اشد غزواته تأثيراً وخطراً ...

الاعتداء على الحجاج

كان ذلك سنة ٩٢٤ ميلادية ، وكان غرض ابي طاهر من هذه الغزوة ، التعرض للحجاج في طريقهم من مكة الى حواضرهم المختلفة ، فلما ظفر بهم اوقع بقافلة تقدمت معظم الحجاج ، وكان فيها خلق كثير من اهل بغداد وغيرهم ، فنهبهم ، واتصل الخبر بباقي الحاج ، فارتحلوا مسرعين الى طريق الكوفة ، فأوقع بهم القرامطة واخذوا جمالهم ، وما ارادوا من الامتعة والاموال والنساء والصبيان ، ثم عاد الجنابي الى هجر ، وترك الحاج في مواضعهم ، فمات اكثرهم جوعاً وعطشاً من حر الشمس ، فاضطربت بغداد من سوء ما نزل بحجاجها ، حتى اضطر الخليفة المقتدر ان يكاتب ابا طاهر ، يطلب منه ان يطلق من عنده من اسرى الحاج فاطلقهم ، وطلب ولاية البصرة والاهواز ، فلم يجبه المقتدر ، فسار من (هجر) يريد الحاج ، وكان جعفر بن ورقاء الشيباني متقلداً اعمال الكوفة وطريق مكة ، فلما سار الحاج من بغداد سار جعفر بين ايديهم خوفاً من ابي طاهر ومعه الف رجل من بني شيبان ، وسار معهم ايضاً قواد الخليفة ومعهم

ستة آلاف رجل ، فلقي ابو طاهر القرمطي جعفراً الشيباني ، فقاتله جعفر ، فبينما هو يقاتله اذ طلع جمع من القرامطة عن يمينه ، فانهزم من بين ايديهم ، فلقي القافلة الاولى فردها الى الكوفة ، ومعها عسكر الخليفة ، وتبعهم ابو طاهر الى باب الكوفة فقاتلهم فانهزم جند الخليفة ودخل ابو طاهر الكوفة ، واقام ستة ايام بظاهرها يدخل البلد نهاراً فيقيم في الجامع الى الليل ، ثم يخرج فيبيت في معسكره ، وحمل منها ما قدر على حمله من الاموال والثياب وغير ذلك ثم عاد الى هجر ...

وعاث ابو طاهر في احياء العرب ، وعظم سلطانه ، وانضم اليه كثير من الناس ، وبسط سلطانه على الصحراء الوسطى ، ثم بنى مدينة الاحساء ، وجعلها قاعدة ملكه ، وسار منها الى عمان فاستولى عليها .

معارك ودماء

وفي سنة ٣١٥ هجرية سار نحو الكوفة وكسر قائد المقتدر يوسف بن ابي الساج الذي احتقره ، وعد امره هيناً ، ثم قصد القرامطة الانبار ، وقاتلوا جند الخليفة وهزموهم واستولوا على مدينة الانبار ، وعقدوا الجسر وعبروا النهر ، وهزموا جند الخليفة وكان اقوى منهم عدداً وعُدداً ، ومضى القرامطة في ارض الجزيرة غزواً وقتلا إلا من اعتصم منهم بالامان والفدية ، ولما تم لهم ما ارادوا من الجزيرة ، عادوا الى الكوفة ، ومنها ذهبوا

الى الصحراء ، بعد ان اهلكوا كثيراً من الناس ، وسبوا النساء والاطفال واستولوا على الاموال .

وكانت هذه الانتصارات العظيمة سبباً في ظهور من كان بالسواد ممن يعتقد مذهب القرامطة ، واجتمع منهم بسواد الكوفة اكثر من عشرة آلاف رجل ، وكانوا يدعون الى المهدي ، وساروا الى الكوفة ، ونزلوا بظاهرها ، وجبوا الخراج وصرفوا عمال الخليفه على السواد ، واخذوا ينهبون ويقتلون ويسبون ، حتى ارسل لهم المقتدر الجند ، فاوقعوا بهم ، وقتلوا منهم الكثير واسروا القليل .

نقل الحجر الاسود

ولما كانت سنة ٣١٧هـ سار ابو طاهر بجنده الى مكة ونهب هو واصحابه اموال الحجاج وقتلوهم حتى في المسجد الحرام وفي البيت نفسه ، وقلع الحجر الاسود وانفذه الى هجر ، وقلع باب البيت وطرح القتلى في بئر زمزم ودفن الباقين في المسجد الحرام حيث دفنوا بغير غسل ولا كفن ، ولا صلاة ، واخذ كسوة البيت فقسمها بين اصحابه ، ونهب دور اهل مكة ، فارتاع العالم الاسلامي لذلك الاجتراء ، وسخط الخليفة الفاطمي عبيد الله ، وكتب الى ابي طاهر ينكر عليه ذلك ، ويلومه ويلعنه ويقيم عليه القيامة ويقول : « قد حققت على شيعتنا ودعاتنا اسم الكفر والالحاد بما فعلت

وان لم ترد على اهل مكة والحجاج وغيرهم ما اخذت منهم ، وترد الحجر الاسود الى مكانه ، وترد كسوة الكعبة فانا برىء منك في الدنيا والاخرة . »

ولم يرد القرامطة الحجر الاسود الى مكانه إلا بعد وفاة ابي طاهر ، وبعد ان ظل عندهم ٢٢ سنة ، وكانت حكومة بغداذ قد عرضت عليهم خمسين الف دينار من الذهب لرده ، فأبوا ، وزعموا انهم حملوه بوحي من امامهم وانما يردونه بأمره وامر خليفته .

اضطراب امر القرامطة

فلما كانت سنة ٣٢٦ اختلف القرامطة فيما بينهم فانقطعوا فترة من الزمن عن الغزو حتى وفاة ابي طاهر سنة ٣٣٢ وقام بالامر بعده ابنه الحسن الملقب بالاعصم ، بعد حروب داخلية ، بينه وبين اخوته ، وقد استطالت دولة الاعصم وعظم شأنه ، وعاد القرامطة في عهده الى غزو العراق ، والعبث فيه ومحاربة عمال الخليفة العباسي في تلك الانحاء ، حتى كان الخلاف بين الحسن وامامه الخليفة الفاطمي ، فراح القرامطة يتوددون الى بني العباس ويدعون لهم .

نظرة سياسية

والذي يراه المؤرخون في صدد السياسة التي اتبعها القرامطة من قتل الحجاج ، واقتحام البصرة والكوفة ،

وايذاء الناس ، وترويع الاطفال والنساء ، ان الغرض من ذلك ، الانتقام من حكومة بغداد التي قتلت عدداً من القرامطة كما قدمنا ، واظهار الخلافة بمظهر من الضعف والتفكك يحمل الناس على عدم الاعتماد عليها ، والايمان بقوتها وامجادها الغابرة ... والهائها في الوقت نفسه عن التفكير بما كان يحدث في افريقيا حيث ارسل زعيم الاسماعيلية الاكبر – امام الزمان – بعض دعاته اليها لاثارة القبائل على الاغالبة الذين كانوا يملكون القيروان في ذلك الحين ... وقد نجحت الدعوة كما هو معروف واستولى جماعة عبيد الله الاسماعيلي على ملك الاغالبة ، واقاموا على انقاضه دولة جديدة ، كانت نواة الدولة الفاطمية التي استولت على مصر بعد ذلك وجعلت مركزها القاهرة التي بناها المعز الفاطمي ...

وقد ذكر المؤرخون ان عدد الذين قتلهم القرامطة في السنة التي اقتحموا فيها مكة بلغ ثلاثة الف نفس ما عدا الذين ماتوا جوعاً وعطشاً عند هربهم منها ...

وذكروا ان مقدار ما غنمه القرامطة بلغ الستة ملايين من الدنانير ، ارسل قسم منها الى الامام ووزع الباقي بين القرامطة انفسهم ...

ومن المؤكد ان هذه الاموال وغيرها التي صار جمعها في الغزوات المختلفة ، كانت النواة الاولى للدعوة الفاطمية في افريقيا ، وبواسطة هذه الاموال استطاع امام الزمان عبيدالله المهدي ابي محمد ان يبسط سلطانه ،

ويوطد امره ...

ولقد اشرنا قبلاً الى انه بعد وفاة عبدالله بن ميمون خلفه ولده احمد في زعامة الحركة ، وخلف احمد بن عبدالله بن ميمون في حمل الدعوة ابنه الحسين ، ثم اخوه محمد المعروف بأبي الشلعلع ، وكانت الدعوة قد استقرت وقويت شوكتها ، وكثرت اموالها ودعاتها ، ومحمد هذا هو الذي ارسل دعاته الى المغرب ، وعلى رأسهم ابو عبدالله الحسين بن احمد المعروف بالشيعي ، فنشر الدعوة فيها واخذ يبشر بظهور الامام المهدي المنتظر ، ثم قام بالدعوة بعده سعيد بن الحسين احمد بن عبدالله ميمون — ابن شقيق محمد المعروف بأبي الشلعلع — وبعض المؤرخين ينكر ان يكون سعيد هذا ابن الحسين ، ويقولون انه ابن زوجته لا ابنه ، ولكنه رباه ولقنه اسرار الدعوة ، واختاره للزعامة من بعده ... (١)

(١) لما توفي عبدالله بن ميمون القداح ادعى ولده انهم من ولد عقيل بن ابي طالب ، وهم مع هذا يسترون ويسرون امرهم ، ويخفون اشخاصهم ، وكان ولده احمد هو المشار اليه منهم ، فتوفي وخلف ولده محمداً وكان هو الذي يكاتبه الدعاة في البلاد ، وتوفي احمد وخلف احمد والحسين ، فسار الحسين الى سلمية من ارض حمص ، وله ودائع واموال من ودائع جده عبدالله القداح ، ووكلاء وغلمان ، وبقي ببغداد من اولاد القداح ابو الشلعلع ، وكان الحسين يدعي انه الوصي ، وصاحب الامر ، والدعاة باليمن والمغرب يكاتبونه ويراسلونه ، واتفق انه جرى بحضرته حديث النساء بسلمية فوصفوا له امرأة رجل مات عنها زوجها وهي في غاية الحسن فتزوجها

وكان ابو عبدالله الشيعي قد وطد له امور الدعوة ومهدها ، وبذل الاموال والوعود في هذا السبيل ، وارسل لعبيد الله وهو لا يزال في سلمية رجالا من قبائل كتامه من المغرب بما فتح الله عليه ، وكيف استطاع ان يجتذب له عدة قبائل قوية وانهم ينتظرونه ، فاعتزم على السفر الى افريقيا ، وشاع خبره عند الناس ايام المكتفي ، فطلبه ، فهرب هو وولده ابو القاسم نزار الذي وليى الامر بعده ، وتلقب بالقائم ، وهو يومئذ غلام ، وخرج مع خاصته ومواليه يريد المغرب ، وذلك ايام زيادة الله ابن الاغلب ، فطلبه المكتفي من عامله على مصر ، فهرب منها ولحق بابي عبدالله الشيعي ، وناصرته بعض القبائل في طرابلس الغرب وتونس ، واستطاع بعد خطوب وشدائد ان ينتزع ملك الاغالبة ، وان يؤسس الدولة العبيدية الفاطمية بافريقية ٢٩٦ هجرية ٩٠٩ ميلادية ، وتوطدت دعائم المملكة الجديدة هذه في سنوات قليلة ، ولم تلبث ان غلبت على المغرب كله ، ثم اقتحمت مصر ، سنة ٣٥٩ واستقرت فيها ... واسمت نفسها الدولة الفاطمية .

ولها ولد من زوجها الاول يماثلها في الجمال ، فأحبها وحسن موقعها معه واحب ولدها وادبه وعلمه ، فتعلم العلم وصارت له نفس عظيمة وهمة كبيرة ... وينتهي ابن الاثير من هذا الكلام الى القول بأن هناك من يقول ان الحسين مات ولم يعقب ، وبعضهم ينكر ذلك ، وابن الاثير نفسه يتردد في تصديق القول الاول .

ابن الاثير ج ٨ صفحة ١٢

الخلاف بين الفاطميين والقرامطة

الفوضى

هذه الحركات الثورية التي بسطناها في الفصل السابق والتي عمت كثيراً من اطراف الامبراطورية العباسية ،في القرنين الرابع والخامس من الهجرة ، انما نشطت في الوقت الذي دب فيه الضعف على سلطان الامبراطورية وجلس على العرش خلفاء لم يحسنوا السياسة ، ولا كانوا من اولي العزم والقوة ، فنشأ عن هذا ان سيطر الجيش على الدولة وكان باكثريته من غير العرب .

وفي هذه الاثناء بدأت بعض ولايات الامبراطورية بالاستقلال عن العاصمة ، فاذا كان القرن الرابع الهجري فانا نجد في مصر وسورية والعراق ثلاث امارات مستقلة بعد ان كانت مندمجة في امبراطورية واحدة، وخليفة واحد ...

فمصر وبلاد الشام او قسم منهما كان بيد الاخشيديين وحلب الى حدود الموصل وديار بكر بيد الحمدانيين ، والعراق وفارس والاهواز تحت سلطان بني بويه ، وكانت هناك مقاطعات اسلامية اخرى تغلب عليها امراء كان بعضهم لا يزال يعترف بسلطان بغداد ...

وكان الحمدانيون وحدهم الذين يحكمون ولايتهم بروح عربية ، واما بنو بنويه فكانوا من الديلم ، وكان الاخشيديون من الترك ...

تطور جديد

والواقع ان جماعة عبدالله بن ميمون ارسلوا دعاتهم الى جميع الامصار والاطراف ، ولو وفقوا ، أو لو جمعوا جموعهم في مكان واحد ، وهاجموا العباسيين عصبة واحدة لقضوا عليهم وعلى امبراطوريتهم ما في ذلك شك ، وهذا ما يبدوا عجيباً للمؤرخ المعاصر ، فقد كان بمقدور ابي سعيد الجنابي لما هاجم الكوفة — سنة ٣١٨ هجرية ٩٣٠م — وكان قد هاجم عُمان في السنة نفسها ولعمان اهمية تجارية وعسكرية غير منكورة — ان يهاجم بغداد ، لان الكوفة مفتاحها ، ولكنه لم يفعل واكتفى بنهب ما وصلت اليه يده من الاموال والاسرى ثم كرّ راجعاً الى بلده.

ولكنه عاد بعد سنوات — سنة ٣٢٥ هجرية — فغزا الكوفة كرة ثانية ، واحتلها ، وحمل الخليفة العباسي على ان يعقد معه هدنة ، ويؤدي له مائة وعشرين الف دينار

جزية سنوية ، كما رضيت حكومة بغداد بدفع ضريبة معينة عن كل حاج يريد السفر الى مكة ، حتى لا يتعرض له القرامطة بسوء ...

ويظهر لنا انه بعد هذه الاتفاقية لم يتعرض القرامطة لحكومة بغداد ، واكتفوا بما عندهم من الامصار وما حصلوا عليه من الاموال ، حتى بعد وفاة ابي طاهر الجنابي – سنة ٣٣٢ هـ – ٩٤٣ م .

ولعل مرد هذه السياسة الجديدة قيام الدولة البويهية وهم من الشيعة ، وسيطرتهم السياسية على بغداد ، وكان هذا تطوراً جديداً في الامبراطورية العباسية ، احس معه القرامطة في البحرين باثر هذه القوة الجديدة ، ففضلوا التفاهم معها ، لا يعرضون لها ولا تعرض لهم ...

الدعوة في افريقيا

وقد يكون سبب هذا الهدوء ان الغاية من الثورات التي قام بها القرامطة في امصار الامبراطورية العباسية ، انما كانت لانهاء العباسيين عما كان يقوم به دعاة الاسماعيلية من الدعوة لابناء عبدالله بن ميمون في افريقيا فلما فاز هؤلاء بملك الاغالبة ، واستقروا في مصر تحت اسم الدولة الفاطمية ، وقام بنو بنويه بالسيطرة على بغداد ، زالت اسباب الثورة والاضطراب ، وفضل الفاطميون محاسنة بني بنويه واستمالتهم الى جانبهم والاتفاق معهم ان امكن على اقتسام الامبراطورية ...

وهناك اسباب اخرى وهو ان الثورات تكون ابداً جامحة ثائرة في اول عهدها ، ثم لا تلبث ان يتولاها الهدوء وحب الاستقرار ، وهذا ما كان مصير ثورات القرامطة على الارجح ...

اصل الحركة الفاطمية

واصل الحركة الفاطمية في الحركة الاسماعيلية التي كان مركزها في قرية سلمية من اعمال حمص كما قدمنا ، وكان يقوم بهذه الدعوة دعاة تثقفوا في الاوساط الاسماعيلية ، وذهبوا للتبشير والدعوة في كل قطر احسوا فيه ارتياحاً الى قبول دعوتهم ...

ولقد وصفنا في الفصل السابق ذهاب — امام الزمان — زعيم الاسماعيلية الاكبر سعيد بن الحسين الذي تلقب بعبيدالله المهدي الى افريقيا بدعوة من داعيته « ابي عبدالله المعروف بالشيعي »، وكيف كتب له انه قد وفق الى اكتساب جمع كبير من رجال القبائل ، وبعد خطوب ومطاردات جمة استطاع الوصول الى المغرب هو وولده القائم ، غير انه وقع في يد امير سلجماسة ، فسجنه باشارة زيادة الله الاغلب قبل ان يوفق الى الاتصال بابي عبدالله والاجتماع به .

غير ان ابا عبدالله نشط الى محاربة زيادة الله ، وبعد حروب ومعارك تمكن من دخول مدينة القيروان ، وكسر جيوش ابن الاغلب ، وازالة ملك الاغالبة من

افريقيا – تونس سنة ٢٩٦ .

ثم سار ابو عبدالله الى سجلماسة وقاتل اميرها وهزمه واخرج عبدالله وولده من السجن ، ودعا الى امامته ، فدخل عبدالله مدينة القيروان سنة ٢٩٧ ، وقبض على زمام الحكم وتلقب بالمهدي ، وقال انه حفيد محمد بن اسماعيل بن جعفر الصادق ، وانه الامام المنتظر ، واستعمل انصاره في حكم الثغور والنواحي ، وقامت بذلك دولة العبيديين ، وكانت عاصمتها (المهدية) التي صار تأسيسها في عهده ، وفي سنة ٣٥٧ افتتح جوهر الصقلي قائد المعز لدين الله خليفة العبيديين مصراً (١) – سنة ٣٥٦ هـ و ٩٦٩ م – الذين صار تسميتهم بالفاطميين – واسس مدينة القاهرة ، ثم قدم المعز الى مصر بعد ذلك ببضعة اعوام ونقل قاعدة ملكه الى القاهرة ، وكان العبيديون قد اشتغلوا حيناً بالغزو عن المضي في بث دعوتهم ، فلما هدأت ثورة الفتح وثبتت دعائم ملكهم ، استأنفوا نشر الدعوة وبثها على طريقة خاصة بهم ، وكان انشطهم واحرصهم في ذلك الحاكم بامر الله ابن المعز الذي تولى عرش مصر بعد وفاة ابيه في سنة ٣٨٦ .

بعد الاستيلاء على مصر

كانت بلاد الشام في الوقت الذي سقطت فيه مصر

---

(١) كان الاخشيديون يحكمون مصر في هذه الاثناء

بيد الفاطميين ، تابعة للدولة الاخشيدية ، فلما خسر الاخشيديون مصر ، قرروا الدفاع عن الشام وفلسطين والحجاز ، وهي الامصار التي كانت في حوزتهم ، وحشد الحسن ابن طغج الاخشيدي حاكم الرملة ودمشق جيشاً لمناجزة الفاطميين ، وسار الى الرملة بعد ان استخلف احد اعوانه على دمشق ، وهو شمول الاخشيدي ، فكاتب هذا جوهراً باستعداده لتسليمه دمشق ، وتقاعد عن نصرة الحسن بن طغج لما سأله القدوم اليه ، في الوقت الذي وصلت فيه جيوش الفاطميين الى مصر بقيادة جعفر بن فلاح وهو قائد بارع من قواد البربر ...

وتمكن جعفر من هزيمة الاخشيديين في الرملة ، واستولى على طبرية بدون حرب تقريباً ... ولكنه لم يحسن السياسة مع اهل دمشق ، فنفروا منه ، وقاوموه ، ووقعت المعركة في يوم الجمعة ذي العقدة سنة ٣٥٨ ، فانكسر الدمشقيون ، ودخل المغاربة الى المدينة في المحرم من سنة ٣٥٩ والقوا النار في اسواقها ... وجرت فتن كثيرة بين اهل الشام والمغاربة ، قبل ان تهدأ الامور ويستتب السلام ...

الخلاف

وكانت العاصمة السورية تدفع للقرامطة في هذه الاثناء مبلغاً كبيراً من المال في السنة اتقاء شرهم ، فلما استولى عليها الفاطميون رفضوا دفع الجزية المطلوبة ، وسخط

المعز على الحسن القرمطي ، وهدده ، وحرض شيعة ابي طاهر على الثورة ، وعلم الحسن بذلك فقطع الدعوة الفاطمية — وكان القرامطة يدعون للفاطميين مذ قامت دولتهم بافريقيا ويقرون زعامتهم الروحية باعتبارهم ائمة الشيعة القائمين بالامر — ثم راح الحسن يدعو للمطيع العباسي ، ولبس السواد ، شعار العباسيين ، وطلب التحالف مع الخليفة العباسي ضد الفاطميين ولكن هذا رفض التحالف معه ، ففكر الحسن باستمالة بني بويه اليه ، وكانوا اصحاب النفوذ الفعلي في العراق ، فرفضوا ايضاً .

وسار الحسن القرمطي الملقب بالاعصم الى الدكة — وهي قريبة من دمشق — حيث اشتبك مع جند الشام بقيادة جعفر بن فلاح اميرها ، فهزمه الحسن واسره وقتله اواخر سنة ٣٦٠ — وصلبه على حائط داره ، واحتفل الحسن احتفالا عظيما بانتصاره ، ولعن الخليفة المعز على منبر المسجد الاموي ، مما يدل على ان القرامطة اصبحوا لا يحفلون بشرف الانتماء الى الفاطميين ، ولم يعودوا يكترثون بالاعتبارات الدينية .

افتكين

وفي هذه الاثناء ظهر على مسرح السياسة افتكين التركي ، وكان غلام معز الدولة احمد بن بويه ، وعظم شأنه في بغداد ، ثم انفض عنه اصحابه وتركوه ، فسار الى الرحبة فيمن بقي معه ، وهم لا يزيدون عن اربعماية ،

فلما بلغ اهل دمشق خروج افتكين من بغداد وتقدمه نحو سورية ، ثاروا على الفاطميين ، ودعوه اليهم ، وكان افتكين في حمص ، فسار الى دمشق ودخلها من غير حرب في اواخر شعبان سنة ٣٦٤

وفشا عندئذ امر افتكين في دمشق وبسط سلطانه على العاصمة السورية ، ودعا القرامطة الى تأييده ضد الفاطميين ، كما دعا للخليفة العباسي ، فلما وافاه القرامطة من الاحساء الى دمشق في سنة ٣٦٥ ، سار افتكين وانصاره معهم الى الرملة ، فنزلوا بها ، وهاجموا يافا ، ثم واصل افتكين تقدمه حتى بلغ صيدا ، فكسر الفاطميين ثم صار الى عكا ، فاهتم الفاطميون للامر ، واخذوا يفكرون تفكيراً جديا في وقف هذا الخطر الداهم ...

غزو مصر

واخذ القرامطة يفكرون في غزو مصر ، وكانت هذه الفكرة غاية في الخطورة ، لانها تدل على التطور العظيم الذي طرأ على سياستهم ، اذ تحولوا من جماعة كانت تعمل للغزو ، على منوال صغير ضيق ، الى جماعة تفكر تفكيراً جديا في الاستيلاء على العواصم الكبرى والبلاد المتحضرة الغنية .

ولما تم للقرامطة الاستيلاء على الشام ، سار الحسن القرمطي الى الرملة ، حيث انضم اليه كثير من الاخشيديين ، ثم استأنف سيره الى مصر فوصل اليها

اوائل سنة ٣٦١ ، واستولى على مقاطعة السويس ، واعترفت بسلطانه «تنيس» وخرجت على واليها ، ووُزعت المناشير في جامع عمرو بن العاص ، لحض الناس على عصيان الفاطميين وقائدهم جوهر ، ثم تقدم الحسن في البلاد المصرية حتى عسكر برجاله في «عين شمس» واخذ يهدد القاهرة .

ولما سمع جوهر بوصول الحسن الى السويس بدأ يستعد لقتاله ، وبعث قوماً من انصاره واعوانه الى معسكر القرامطة وامرهم ان يتظاهروا بالسخط على الفاطميين ليتسنى لهم بذر الفتنة بين القرامطة ، وقد وفق في خطته ، ودب الانقسام في جيش عدوه ، وانتصر المصريون في المعركة التي وقعت على ابواب القاهرة ، وارتد القرامطة ، بعد فشلهم في تنيس الى دمشق ...

المعز والحسن القرمطي

وفي سنة ٣٦٢ قدم المعز الى مصر وكتب الى الحسن ابن احمد القرمطي كتاباً هذا بعض ما جاء فيه :

« من عبدالله ووليه وصفيه المعز لدين الله ، امير المؤمنين وسلالة خير النبيين ونجل علي افضل الوصيين الى الحسن بن احمد » ...

وبدأ المعز كتابه يذكر الحسن فيه بسنة الاوائل وكيف ان جديه ابا سعيد وابا الطاهر كانا يدينان بنفوذهما للفاطميين ويعتنقان مذهبهم ، ثم ندد بسياسة

الحسن ، واظهر حنقه عليه بهذه العبارة « اما انت ايها الغادر الخائن الناكث هدى ابائه واجداده ، المنسلخ من دين اسلافه والموقد لنار الفتنة ، والخارج عن الجماعة والسنة فلم اغفل امرك ، ولا خفي عني خبرك ، ولا استتر دوني اثرك ، وانك مني لبمنظر ...»

وعرض عليه المعز في نهاية الكتاب ثلاث خصال ليختار لنفسه واحدة منها : اما ان يرد جميع ما استحوذ عليه من الاسلاب في حروبه مع جعفر قائد جند الشام وجنده ، وسعادة بن حيان ورجاله بالرملة ، واما ان يردهم احياء — وهو ما لا يستطيعه — واما ان يسير هو واتباعه الى المعز فيحكم عليهم بالقصاص او الفدية .

وقد رد الحسن القرمطي على كتاب المعز بهذه الكلمات :

« لقد تسلمت كتابك المملوء بالالفاظ ، الخالي من المعاني ، وسياتيك جوابي ... »

وكان الجواب تهديداً ظاهراً ، ودليلاً صارخاً على رغبة الحسن القرمطي في الانتقام لنفسه من الخذلان الذي اصابه ، بالاغارة على مصر كرة ثانية ...

غزو مصر ثانية

واغار القرامطة حقاً على مصر في ربيع الثاني من سنة ٣٦٣ ، فهزموا هزيمة منكرة ، واخذت قوة القرامطة بالتفكك والاضطراب .

وكان من اثر انهزام القرامطة ان عزل المعز الفاطمي الحسن – وهذا يدل دلالة واضحة على سلطان الفاطميين وتأثيرهم على القرامطة – ، وولى احد اولاد ابي طاهر مكانه ، فنشبت الثورة في البحرين بسبب ذلك ، واقتحم الثوار الاحساء في غيبة الحسن ، وانفض كثير من العرب من حوله ...

ولما توفي المعز لدين الله سنة ٣٦٥ ، وقع خلاف بين ابنه العزيز وبين افتكين امير دمشق ، وسبب ذلك ان العزيز كتب الى افتكين يستميله اليه ، ويعده بالمكافأة اذا جلا عن دمشق ، فرد عليه افتكين قائلا :

« هـذا بلد اخذته بالسيف ، وما ادين فيـه لاحد بطاعة ، ولا اقبل منه امراً . »

فاستاء العزيز من هذا الجواب ، وارسل جوهراً لمحاربته بالجند والسلاح والاموال ...

فلما علم افتكين بتقدم الجيش نحـوه خطب اهـل دمشق واخبرهم بالخطر ، واعلمهم انه سيغادرهم فتعلقوا به وطلبوا منه البقاء ، ووعدوه بالمساعدة والتأييد ...

وكان جوهر يحمل امانا من العزيز لافتكين ، وخاتما وكتابا بالعفو عنه لما فرط منه ، فكتب له بذلك ، ونصحه بترك الفتنة ، فرد عليه افتكين شاكراً ، واعتذر باصرار اهل دمشق على الحرب ، ثم سار من عكا الى طـبريه حيث انضم الى القرامطة واستعد للقاء جوهر ، ثم دخل دمشق وتحصن فيها .

انسحاب جوهر من دمشق

وصل جوهر الى دمشق في ٢٢ ذي الحجة سنة ٣٦٦ هـ وبنى سوراً يضم عسكره ، وحفر خندقاً كبيراً ، وجمع افتكين الجند للقتال ، ووقعت بينه وبين جوهر معارك كثيرة ، دارت فيها الدائرة على افتكين في ١١ ربيع الاول سنة ٣٦٦ ، رغم ما ابداه من شجاعة وبطولة ...

فلما رأى الدمشقيون تطور الموقف عرضوا عليه ان يستنجد بالحسن القرمطي ففعل وقدم الحسن الى دمشق ، فخشي جوهر العاقبة وطلب الصلح على ان يجلو عن دمشق ، بعد ان نضبت موارده واعوزته المؤونة ، وهلك معظم جنده .

واجاب افتكين جوهراً الى طلبه ، فرحل هذا عن دمشق في ٣ جمادي الاولى سنة ٣٦٦ هـ وذهب الى طبريه فتبعه الحسن القرمطي ، فرحل الى الرملة . فبعث الحسن سرية لقتاله ووقعت بين الفريقين موقعة قتل فيها كثير من العرب ، ثم ذهب اليه الحسن وتبعه افتكين وانضم اليهما من اهل الشام اكثر من خمسين الفاً ، فذهب جوهر الى عسقلان لما وجد نفسه عاجزاً عن محاربة عدويه معاً ، فادركاه وحاصراه فيها حتى ندرت المؤن ، وعزّت الاقوات .

فرأى جوهر عندئذ ان يصل باللين والدهاء الى ما

عجز عن الوصول اليه عن طريق الحرب والقتال ، فكتب الى افتكين يدعوه الى المهادنة ، وبعث اليه الرسل يطلبون منه الاجتماع به ، فلما اجتمعا اتى جوهر افتكين من ناحية الدين وطلب اليه حقن دماء المسلمين والعمل على اخماد نار الفتنة(١) ، عاملاً في الوقت نفسه على اثارة الخلاف بين افتكين والحسن القرمطي ، لعله يتمكن من القضاء عليهما الواحد بعد الاخر .

وبعد حوار طويل تمكن جوهر من اقناع افتكين بالمهادنة ، فرضي هذا برفع الحصار عن عسقلان شرط ان يمر جوهر وجنده تحت سيفي ورمحي افتكين والحسن القرمطي ، فرضي جوهر وتعاهدا على ذلك ، وافترق القائدان ، وعاد كل منهما الى معسكره ، ولما وصل جوهر الى عسقلان ارسل الى افتكين الكثير من الهدايا والتحف ...

ولما ابلغ افتكين الحسن القرمطي بما جرى بينه وبين جوهر من التعاقد والمهادنة ، انكر عليه الحسن عمله ، وطلب منه ان يرجع عن عهده ، فابى ووفى لجوهر بعهده..

ولما وصل جوهر الى مصر ودخل على العزيز بالله ، شرح له حقيقة الحال في بلاد الشام ، واستفحال امر افتكين ومن معه ، فقال له : ما الرأي ؟

فقال جرهر : ان كنت تريدهم ، فاخرج بنفسك اليهم والا فانهم واردون على اثري ...

(١) ابن القلانسي – ذيل تاريخ دمشق ص ١٦–١٧

فامر العزيز باعداد العدة ، وخرج على رأس جيش كبير مزود بالمؤن والذخيرة ، وجوهر على مقدمته .

المعركة

فلما علم افتكين والحسن القرمطي بما عقد العزيز العزم عليه ، عادا الى الرملة حيث تلاقى الجيشان ، وحمي وطيس القتال (١) ، « وجال افتكين بين الصفين يكر ويحمل ويطعن ويضرب »..

فقال العزيز لجوهر : « ارني افتكين »... فأشار اليه .. وهو يطعن تارة بالرمح ويضرب اخرى بالسيف والناس يتحامونه ويتقونه ...

فاعجب العزيز ما رأى من بسالته وشجاعته ، ثم وقف العزيز ، وانفذ اليه رجلاً من عنده وقال له : قل ، يا افتكين انا العزيز ، وقد ازعجتني عن سرير ملكي ، واخرجتني لمباشرة الحرب بنفسي ، وانا مسامحك بجميع ذلك ، وصافح لك عنه ، فاترك ما انت عليه ولذ بالعفو مني ، فلك عهد الله وميثاقه ، اني اؤمنك واصطفيك ، وانوه باسمك ، واهب لك الشام واتركه في يدك (٢)

فمضى الرسول الى افتكين وبلغه رسالة العزيز ، فخرج بحيث يراه الناس ، وترجل وقبل الارض مراراً ومرغ

---

(١) المقريزي – الخطط ج ٢ ص ٢٨١

(٢) ابن القلانسي ، ذيل تاريخ دمشق ص ١٨

خديه عليها معفراً وقال :

– قل لامير المؤمنين ، لو تقدم هذا القول منك لسارعت اليه ، واطعت امرك ، فاما الآن فليس الا ما ترى.

وعاد الرسول ونقل الى العزيز ما سمع ، فقال له :

– ارجع اليه وقل له يقرب مني ، بحيث اراه ويراني فان استحققت ان يضرب بالسيف فليفعل ...

فمضى الرسول وابلغه ذلك فقال :

– ما كنت الذي اشاهد طلعة امير المؤمنين وانابذه الحرب ، وقد خرج الامر عن يدي ...

ثم حمل على ميسرة الفاطميين ، فهزمها وقتل كثيراً من رجالها ، وشاهد ذلك العزيز بعيني رأسه فحمل بميمنة جيشه والمظلة على رأسه ، فهزم افتكين والقرمطي في يوم الخميس ٢٣ المحرم سنة ٣٦٨ هـ ، واعمل السيف في جيشها وقتل من جندهما نحو عشرين الف رجل ، وفر الحسن القرمطي هارباً .

العفو

وبذلك قضى العزيز على رأس تلك الفتنة ، بعد ان كادت تقوض دعائم الدولة الفاطمية الفتية ، وفرّ افتكين على فرس له ، فقبض عليه العرب بعد ان بذل العزيز لمن يجيء به مائة الف دينار ، وارساوه الى العزيز ، فأمر ان يشهر به فطيف على جمل فأخذ الناس يلطمونه ، ويهزون لحيته ...

ويحدثنا ابن القلانسي : ان افتكين لما دخل على العزيز في سزادقه ، ترجل عن دابته وقبل الارض بين يديه ، وحمل الى دست قد نصب له ليجلس عليه ، فلم يكن من افتكين ، ازاء الحفاوة به وبرجاله ، الا ان رمى بنفسه الى الارض والقى ما على رأسه وبكى بكاء شديداً سمع الحاضرون نشيجه وقال :

— ما استحققت الابقاء عليّ ، فضلا عن العفو الكريم والاحسان الجسيم ...

وقد بالغ العزيز في اكرام افتكين ، فأسكنه داراً فسيحة ، واغدق عليه صلاته وعطاياه ، وظل افتكين ممتعاً بنعم العزيز حتى مات في سنة ٣٧٢ هـ ، وقد اتهم يعقوب بن كلس وزير العزيز بقتله بالسم لترفع افتكين عنه ، فأمر به العزيز فحبسه مدة حنقاً منه عليه ثم اطلقه .

وهكذا توطد سلطان الفاطميين في سورية ، فأصبحت ولاية فاطمية حاضرتها دمشق ، وظلت على ذلك الى اواخر عهد الدولة الفاطمية ، حيث استقل محمود نور الدين بن زنكي بدمشق واستولى الصليبيون على معظم ارجاء فلسطين ، ثم اصبحت بعد ذلك جزءاً من املاك الدولة الايوبية ...

انهيار القرامطة

ومن المؤكد ان هذه الانهزامات المتوالية ، وهذا الاختلاف الذي وقع بين الحسن والفاطميين ، ومكايد السياسة الفاطمية نفسها بين القرامطة ، حملت هذه الجماعة

آخر الامر ، على انكار بيعة الحسن لبني العباس ، فخلعوه ونزعوا الامر من بني الجنابي جملة ، وقدموا عليهم رجلين من الزعماء هما جعفر واسحاق ، فرحل ابناء سعيد الجنابي الى جزيرة « اوال » وقام جعفر واسحاق بالامر حيناً ، وقطعا الدعوة العباسية ، ورجعا الى الدعوة العلوية الفاطمية ثم سارا الى الكوفة ، وكانت الجزيرة عندئذ في يد آل بويه ، فبعث اليهما صمام الدولة بن بويه الجند ، من بغداد فانتصر القرامطة اولا ، ثم هُزموا اخيراً ، وطاردهم جند آل بويه حتى القادسية وامعنوا فيهم قتلا واسراً ...

واستقل عنهم سكان اواسط الجزيرة العربية ، وتبعهم سكان عمان سنة ٣٧٥ هجرية ، وقامت قبائل المنتفق سنة ٣٧٨ فهاجمتهم وكسرتهم ، وحاصرتهم في عاصمتهم فلم تقو عليها ، فتحولت الى القطيف ففتحتها عنوة وغنمت ما فيها.

وضعف امر القرامطة بعد ذلك وانفض عنهم الاعراب والبدو ، الذين انما ايدوهم للسلب والنهب ، ثم دب الخلاف بين جعفر واسحاق ، واراد كل واحد منهما الاستئثار بالسلطة ، فثارت بين القرامطة حرب داخلية مزقت شملهم ، وانتهز الفرصة متغلب من تلك النواحي يسمى الاصفر التغلبي ، فوثب بالبحرين ، وقاتل القرامطة وانتزع الاحساء منهم ، وقطع دعوتهم ودعوة الفاطميين ودعا للمطيع العباسي ، واستقر الامر له ولبنيه هناك ، بعد ان سيطرت حركة القرامطة على الجزيرة العربية حيال مائة سنة تقريباً .

النظام الاجتماعي عند القرامطة

استقرار الحركة

الحركة القرمطية فرقة اشتراكية دينية صار انبثاقها عن الحركة الاسماعيلية التي انبثقت بدورها عن الحركة الشيعية ، وان كانت هذه الفرق الثلاث تختلف اختلافاً عظيما في عقائدها وتقاليدها واغراضها السياسية والاجتماعية والدينية ...

ولقد قامت الحركة القرمطية التي هي حركة ميمونية نسبة الى عبدالله بن ميمون على اساس ديني يقول «بامام الزمان المحجوب» ثم ناصرت الخلفاء الفاطميين الذين ايدهم دعاة عبدالله بن ميمون ووطدوا لهم مركزهم ، ومكنوهم من انشاء الدولة الفاطمية بمصر ، ولكن هذه المناصرة لم تدم طويلا ، فقد دخلت فيها السياسة والمصلحة الخاصة فافسدتها كما بسطنا ذلك في الفصل السابق ، فرأينا الحسن

الاعصم ابن ابي طاهر القرمطي يحارب الفاطميين ،ويعمل للاستيلاء على مصر ولكنه لا يوفق ويرتد فاشلاً، وينهار امره ، وتتمزق دولته في البحرين وغير البحرين ...

وقد راح القرامطة اول الامر يرسلون بعض ما يجمعونه من المال سواء اكان من الزكاة والضرائب ام من الغزوات المختلفة الى الامام القائم في سلمية ، فلما سافر الامام من سلمية الى افريقيا ، وانشأ الدولة العبيدية ثم الدولة الفاطمية في مصر ، انقطعت هذه المساعدة المادية ، وقد يكون سبب ذلك بُعد الشقة ، ورغبة القوم في الاستقلال الذاتي – خصوصاً جماعة القرامطة في البحرين – بعد ان استقر سلطانهم وتوطد ملكهم ، واتفقوا مع بغداد على مبلغ سنوي من المال تدفعه لهم الدولة العباسية ليخلدوا الى السلام ، ويتركوا الحجاج وشأنهم ، ولا يعرضوا لامصار الدولة العباسية بشر او سوء ...

الحكم

اما نظام الحكم القرمطي في البحرين فيبدو انه كان اقرب الى الشورى والجمهورية منه الى الملكية ، وان كان في الواقع مزيجاً من هذا او ذاك ، ذلك أن اسرة ابي طاهر الجنابي كانت الحاكمة ، مع الاعتماد على مجلس شورى صار اختياره من اسرة ابي طاهر وانصاره المقربين ، وهو مؤلف من ستة اشخاص مع ستة من الوكلاء يجلسون

خلفهم عند الاجتماع ، والى هذا المجلس كانت ترجع اكثر المشاكل ، إلا ما يتعلق بالتنفيذ والقيادة العامة للجيش فان هذين الامرين كانا من خصائص ابي طاهر وخلفائه من بعده ...

والواقع ان معلوماتنا عن نظام الحكم عند القرامطة ترجع الى رحالة فارسي يدعى ناصر خسرو ، زار البحرين سنة ١٠٥٢ وذكر فيما ذكره عنهم « واحفاد ابي سعيد الجنابي يقيمون الآن في قصر واسع يعرف « بدار الهجرة » وهو دار الحكومة ، حيث يوجد التخت الذي يجلس عليه الوزراء الستة الذين يصدرون الاحكام بعد البحث والاتفاق ولهم ستة من المساعدين يجلسون على تخت آخر خلفهم ، وهذا المجلس لا يقرر امراً إلا بالاتفاق التام بين جميع الاعضاء . »

ولم يكن احفاد ابي سعيد وابي طاهر ينتخبون لهذا المجلس إلا نادراً ، ولكنهم كانوا ينعمون بالامتيازات والحقوق التي تجعلهم فوق مستوى غيرهم من الناس ، وكان اعضاء المجلس الى هذا من الاسرة نفسها بحيث يصح لنا ان نقول ان هذه الجمهورية كانت جمهورية عائلية اكثر منها جمهورية شعبية ، وهو شيء جديد عند العرب ، ولكن الذي مكّن لهذه العائلة من الغلبة والاستعلاء في جمهورية البحرين ان اكثر القرامطة كانوا من العمال والمزارعين ، ولم يكن همهم إلا ان ينعموا بالارض ، والعيش الهادئ المطمئن لا يكدر عليهم عيشهم ضريبة او ظلم ، ونظن

ان هذا هو في الواقع ما حصلوا عليه ونالوه ، وهو ما حملهم على قبول النظم الحكومية القائمة والسكوت عليها..

تقسيم الارض

ونرى ان حكومة البحرين فطنت الى هذه الناحية الخطيرة منذ نعمت بالاستقرار الداخلي ، فقسمت الارض بين المحتاجين ، والغت الضرائب الا اقلها ، واقرت من الضرائب ما لا يشعر السكان بثقلها كضريبة المراكب التي تمر بالخليج العجمي ، وضريبة على الحجاج الذي يقصدون البحرين ، وثالثة على صيادي اللؤلؤ ، فاذا ضمت هذه الضرائب الى ما كانت تدفعه الدولة العباسية من المال لصندوق القرامطة ، والى ما كانوا يحصلون عليه من الغزو في بعض الحالات ، وذكرنا ان الحكومة كانت عبارة عن بعض الموظفين ، وجدنا ان الدخل كان يفوق المصارفات ، خصوصاً وان ارض البحرين من الاراضي الخصبة ، وتجارتها مع جيرانها كانت رائجة ، وهذا ما يجعلنا نؤمن بما يقوله بعض المؤرخين من ان مالية حكومة البحرين كانت في حالة مزدهرة ...

واما مسألة الارض فيظهر انها حلت بطريقة ملائمة ، فقد كانت البحرين من البلاد العربية التي كانت الارض فيها مشاعاً للمزارعين ، وهذا ما يحملنا على القول بان مشكلة الارض لم تكن من المشاكل المعقدة ، ولكنه من المؤكد ان الحكومة القرمطية اعطت بعض الارض

لمن ليس عنده ارض ، كما انها قامت باستثمار البعض الاخر ، ويؤيد هذا الرحالة الفارسي ناصر خسرو الذي اشرنا اليه ، فقد قال : « انه رأى يوم كان في الاحساء ثلاثين الفاً من السودان يشتغلون في الحقول والبساتين على حساب المجلس ، وهي حقول مشتراة بمال الحكومة وان المزارعين لم يكونوا يدفعون للحكومة شيئاً من الضرائب ، ومن عجز منهم او اصابه دين فافتقر ، كانت تساعده الحكومة وتسلفه ما يحتاجه من المال حتى يعود الى حاله ، ومن استدان لا يدفع فائدة عن دينه ... »

وهذا في الواقع نظام عجيب غريب ...

« واذا دخل غريب الاحساء وكان من اصحاب الصناعات او له معرفة بشيء منها استأجرته الحكومة ، واشترت له ادوات حرفته ، حتى يحسن حاله فيرد المال كاملاً الى الصندوق العام دون ما فائدة ولا رباء . »

وكانت الحكومة الى هذا تساعد من يصاب من السكان عند الحاجة ، اذا اصابته ضائقة اودت بماله او مصيبة قوضت منزله ومكان عمله ، كما انها كانت تطحن للناس حبوبهم مجاناً ، على ان يقوم الصندوق العام بمصارفات الطحن واجور الطحانين ... (١)

واغرب من ذلك ما يقوله هذا الرحالة من انه لم يكن في الاحساء فقير ، وكانت التجارة ولا سيما الخارجية

---

(١) ناصر خسرو .

منها بيد الحكومة ، على ان تصرف ارباحها على المصالح العامة ... وهذا ما يبرر سكون الناس الى حكم ابي طاهر وخلفائه بعده مدة طويلة من الزمن ...

اخلاقهم

ولعل اغرب ما في اخبار القرامطة انهم كانوا الطف اخلاقاً في بلادهم وبين قومهم ، منهم حين يقتحمون المدن ، ويغزون الامصار ويسلبون السابلة والحجاج ، فقد اقام ابن حوقل الرحالة المؤرخ شهراً بينهم ، فلم ينكر شيئاً من اخلاقهم ، وزارهم المقدسي بعده فلم يتهمهم بما يسيء الى الفضيلة ، ثم زارهم ناصر خسرو فلم يذكر في كتابه خلة مذمومة ، وهذا في الواقع اغرب ما وقعنا عليه في بحثنا عن اخبارهم وثوراتهم ، وتفسير هذا انهم كانوا يعتبرون الغزو والقسوة في الحرب خلة حسنة ، ويرون الاعتداء على الامصار والمدن الآهلة بالسكان ، وحجاج بيت الله الحرام من الامور الواجبة لكون هؤلاء لا يدينون بدينهم ولا يؤمنون بعقيدتهم ، واما من يؤمن بعقيدتهم ، ومن يكون منهم فقد حق له ان يكون آمناً مطمئناً الى نفسه وماله وعائلته ، وكان عليهم ان يعاملوه بالحسنى والعدل والانصاف ...

هذه الناحية الخلقية ذات الوجهين فيهم هي التي تفسر اجماع المؤرخين على انتقاد اعمالهم والتشهير بقسوتهم واتهامهم بما كان وما لم يكن ، ولكن الذي لا شك فيه انهم

كانوا بعيدين عن العقيدة الاسلامية ، وانهم كانوا فرقة اتخذت الدين وسيلة لاغراضها الشخصية ، فكان من اثر ذلك هذه الثورات والدماء التي ملأت العربية من ادناها الى اقصاها ...

ولقد اجمع المؤرخون من عرب ومستشرقين على القول بان القرامطة كانوا بعيدين عن الدين وشعائره كل البعد ، وان دينهم الحقيقي هو اغراضهم الاجتماعية الاشتراكية التي اشرنا اليها ، وليس ببعيد انه كان لهم بعض العقائد كالايمان بالامام ، والمهدي مثلاً ، ولكن هذه العقيدة كانت سياسية اكثر منها دينية ، فلم يكن عندهم عقائد ولا طقوس ، وكانوا ينكرون الرسل والشرائع كلها ، وتأولوا لكل ركن من اركان الشريعة تأويلاً يورث تضليلاً ، فزعموا ان معنى الصلاة موالاة امامهم ، والحج زيارته وادمان خدمته ، والصوم الامساك عن افشاء سرهم . (١)

---

(١) الفرق بين الفرق

— انتهى الكتاب —

تم طبع هذا الكتاب في دار الاحد – بيروت –
يوم الخميس السابع والعشرين من شهر محرم
عام الف وثلاثماية واربع وستين –
الحادي عشر من شهر كانون
الثاني عام الف وتسعماية
وخمسة واربعين

وطبع من هذا الكتاب ٦٠ نسخة
على ورق صقيل مرقمة من ١ – ٦٠
و ١٢ نسخة ممتازة لا تعرض للبيع .

A.

DATE DUE

RY

A.U.B. LIBRARY
AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT LIBRARIES
00335441